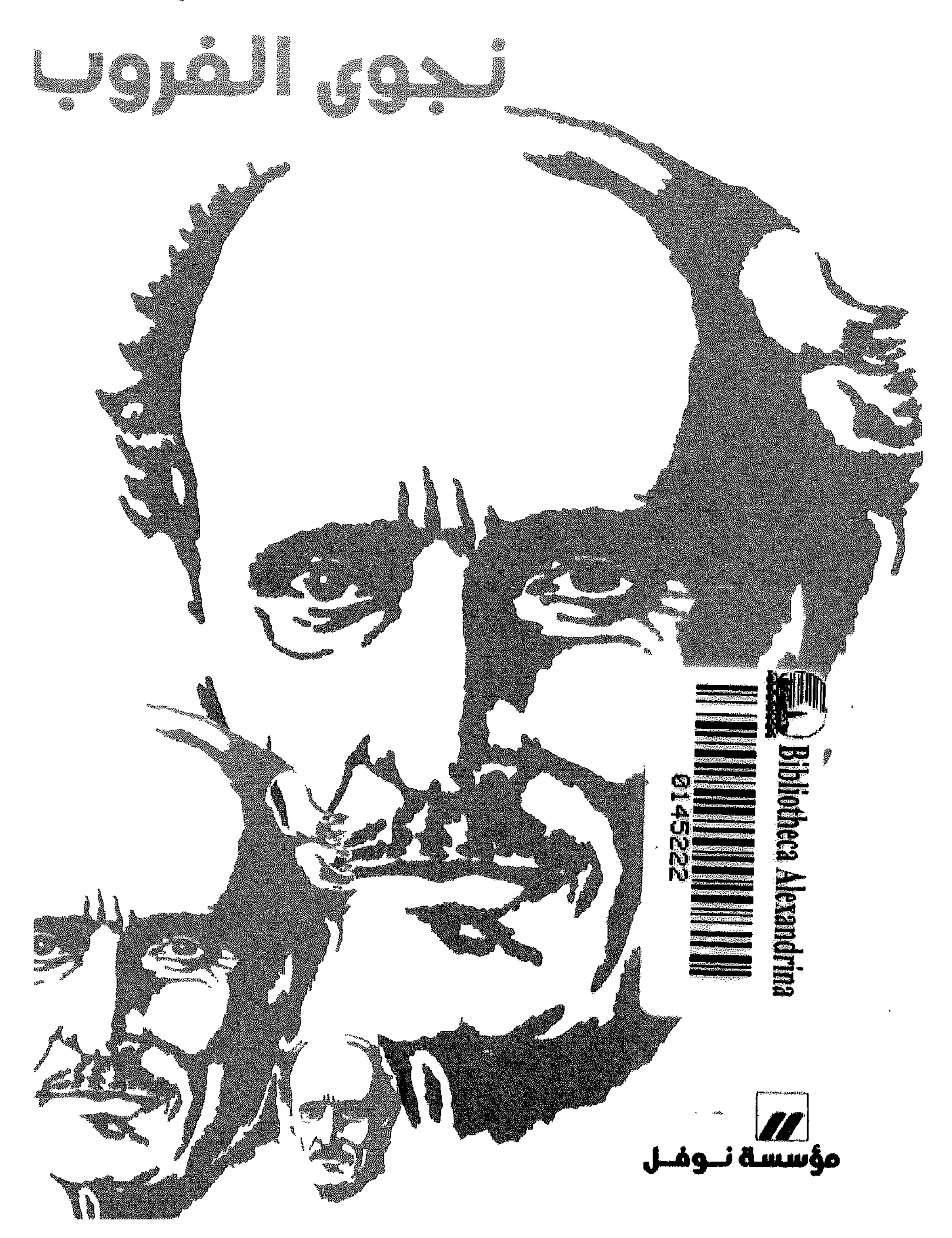
ميخائيل نعيمة

نجوى الغروب



مؤسسة نوفل







نجوى الغروب



ميخائيل نعيمه

نجوى الغروب

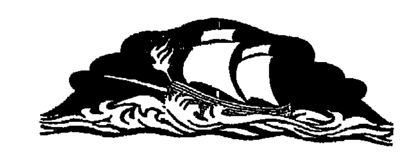


الطبعة الثانية
١٩٨٥



عجائبك يا ربِّ تكتنفني
منذ أَن خرجتُ من بطن أُمّي
وحتى شارفَتْ شمسي على الغروب .
وأَصغرها أَكبر من أَن يحيط به أَيّ عقل ،
أَو أَن يستوعبه أَيّ خيال ،
أَو أَن ترسمه ريشة ويصفه قلم ،
أَو أَن تتلفّظ به شفتان ولسان .
وأَنا وسط هذه العجائب

أَقف خاشعاً مشدوهاً ، وذاهلاً عن نفسي .
ويُخيَّل إليّ أَنني العجيبة الكبرى .



إِنْ فتحت عينيّ أَو أَغمضتهما
فعلى أَلف أَلف عجيبة .
وإِن فتحت فمي أَو أَطبقته
فعلى أَلف أَلف عجيبة .
بالعجائب أَقتات وأَرتوي ،
وبالعجائب أَستر عريي ،
وعلى العجائب أَمشي ،
ومع العجائب أَنام وأَقوم .

نفَسي عجيبة ،

ودمي عجيبة ،

وكلّ خليّة في جسدي عجيبة .

وأَعجبها على الإطلاق

تلك الخلايا التي تحتويها جمجمتي

والتي انطبعت فيها آثار حياتي كلّها

على مدى ثلاثة وثمانين من الأَعوام .

ما فكَّرت فكراً ،

ولا حلمت حلماً ،

ولا اشتهيت شهوة ،

ولا نويت نيّة ،

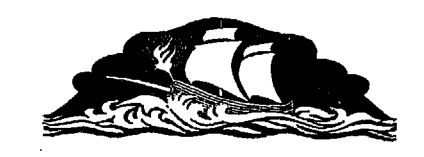
ولا أَبصرت صورة ،

ولا سمعت صوتاً ،

ولا تذوّقت طعماً ،

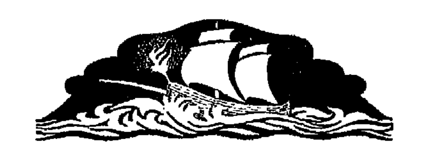
ولا لمست شيئاً أَو شممت رائحة ،

ولا تلفَّظت بكلمة
إلَّا انحفرت جميعها في تلك الخلايا العجيبة .
فما أَعظمك ، وما أَعجبني يا ربِّي !



في فضائلك اللامتناهي
أَقمار وشموس ومجرّات
لا حصر لأَعدادها وأَبعادها ،
ولأَشكالها وأَحجامها ،
وللسُّبل التي تسلكها .
بعضها يدور على ذاته ،
وبعضها يدور حول بعض .

لكنّها جميعها تدور ،
وبسرعة هائلة ،
فلا يرتطم هذا بذاك ،
ولا يقطع الواحد الطريق على الآخر.
تدور ، وتدور ، وتدور
منذ ملايين السنين ،
وستبقى تدور ملايين السنين
دون أَن تترنَّح ،
ودون أَن يغلبها تعب أَو نعاس.
وهي في دورانها تغنّي.
لكنّ أُذني البليدة ،
المثقلة بأَصوات غير أَصواتها ،
لا تسمع الغناء ،
وتسمعه روحي
فتطرب وتنتشي حتّى الإِغماء.

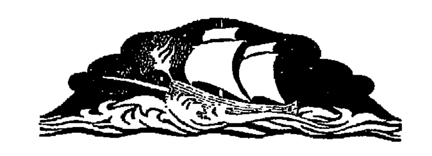


بين تلك الأَقمار والشموس والمجرّات –
وكلّها كرَويّ –
كُرَيّة تدعى الأَرض.
وهذه قد جعلتَها يا ربّي مسكناً لي
ولِبَني جنسي،
ولجيوش جرّارة من الأَحياءِ غيرنا
ما بين نبات وحشرات،
وطير وحيوان.
وجعلتَ هذه كلّها أَصنافاً وأَجناساً
تتقارب وتتشابه في جوانب كثيرة

وتتباعد وتتخالف في جوانب كثيرة.
ولكنّها جميعها – من أَصغرها إلى أَكبرها –
تؤلِّف فتنة تلو فتنة للعين والفكر،
وللخيال والوجدان.
ولقد زيّنتَ الأَرض، فوق ذلك،
أَروع الزينة:
زيّنتها بالجبال والأَنهار والبحار،
وبالليل والنهار،
وبالفصول تتعاقب عاماً بعد عام،
وبالأَديم الأَزرق المجلوّ حيناً كالمرآة،
والمقنّع حيناً بالسحاب والضباب.
زيّنتَها بالأَصوات العجيبة
التي تنطلق من حناجر سكّانها
ما بين آدميّين وغير آدميّين،
وجعلتَ هذه الأَصوات تأْتلف

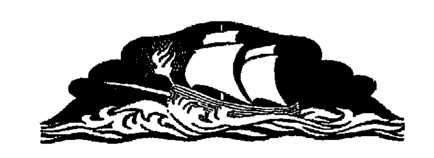
في سمفونية عجيبة
هي سمفونية الأَرض.
زيّنتَها بأَشكال لا تقع تحت حصر وعدّ،
وبأَلوان تخلب العين واللبّ،
وضمّختَها بكلّ أَصناف العطور،
وغسلتَ وجهها بالنور،
وحشوتَ جوفها بالنار،
فراحت تتفجّر حيناً بالزلازل،
وأَحياناً بالبراكين.
وأَرسلتَ الرياح تواكبها في سيرها الطويل،
فآناً ترنِّم لها التهاويد والأَناشيد،
وآونة تهدر وتزمجر وتعربد.
وأَنا المحمول على ظهر الأَرض
أَدور معها وأَدور
غير شاعر بأَنني أَدور.

فكأَنَّ بيتي هو القلعة المنيعة ، الصامدة ،
وكأَنَّه من الأَرض محورها ،
بل كأَنَّه محور المسكونة بأَسرها .



إيْ ، عجيبة هي أَرضك يا ربّي
وعجيب كلّ ما فيها وما عليها ،
من أَصغر جرثومة وبعوضة
حتى أَكبر فيل وحوت ،
ومن ذرّة الرمل وقطرة الماء
حتى أَعلى جبل وأَوسع محيط ،
ومن أَحقر نبتة حتى أَعتى أَرزة .

ولعلّ أعجب عجائبك في الأَرض
هي هذه الغرائز المذهلة التي بها سلَّحتَ سكَّانها ،
والتي بها يهتدون إلى ما يأْكلون ويشربون ،
ويعرفون أَين ، وكيف ، ومتى عنه يفتشون ،
مثلما يعرفون أَين ، وكيف ، ومتى يتواصلون ويتناسلون
كيلا تنقرض ذريّتهم من الأَرض ،
ويعرفون كيف عن أَنفسهم
وعن صغارهم وحياضهم يدافعون ،
ويقرأُون في كتاب الليل والنهار
متى يعملون ومتى يستريحون ،
ومتى ينامون ويقومون .
ويقرأُون في كتاب الفصول
أَنَّى يقيمون وأَنَّى يرتحلون .



أمّا أَنا وبني جنسي

فقد ميّزتني يا ربّي ،

فوق الغريزة ،

بالنطق ، وبالعقل، وبالخيال ، وبا لحَدْس، وبالإرادة ،

وبمعرفة الخير والشرّ.

ومن هنا مصدر هنائي وشقائي .

بالنطق نتفاهم أَنا وإخواني الناس فنتقارب ،

وبالنطق لا نتفاهم فنتباعد.

وكثيراً ما نتخاصم ونتناهش

إلى حدّ أَن نهدر دماءنا ،

وندمِّر العامر من ديارنا ،

ونرمِّل نساءنا ،

ونيتِّم أَطفالنا ،

ونعقِّم أَرضنا .

فكأَنَّما الكلمة سيف ذو حدَّين :

حدّ صالح ، وحدّ طالح .

أَو كأَنَّما الكلمة همزة وصلٍ

وهمزة قطع في آنٍ معاً .

أَو كأَنَّها العسل الممزوج بالحنظل .

بالنطق أَسلك مسالك العشّاق ،

وبالنطق أَكره حتى الاحتراق .

بالنطق أُغنّي

وبالنطق أَندب .

بالنطق أُصلِّي ،

وبالنطق أُعربد .

بالنطق أُناجيك ،

وبالنطق أُجافيك .

بالنطق أَشهد لك ،
وبالنطق أَشهد عليك .
ولو كان السكوت المطبق بمستطاع
لآثرت السكوت .
أَفَمَقضيّ عليّ يا ربّي
أَن أَعيش ممزّقاً
بين نطق لا ينقع غلَّتي
وسكوت غير مستطاع ؟



والعقل يا ربّي ،
أَيّ عجيبة هو !

أيّ عطيّة هو !!

أيّ بليّة هو !!!

جوّاب آفاق هو العقل ،

لا يستقرّ لحظة واحدة في مكان واحد ،

ولا يسير في اتجاه واحد ،

فكأنّه البرق في السحاب .

أمّا مطاياه في تجواله

فالعين والأُذن ،

والأَنف واللسان ،

واليدان والرجلان .

وهو حريص أن يجمع كلّ ما تبصره العين ،

وكلّ ما تسمعه الأُذن ،

وكلّ ما يشمّه الأَنف ،

وكلّ ما يتذوّقه اللسان ،

وكلّ ما تتلمّسه اليدان والرجلان ،

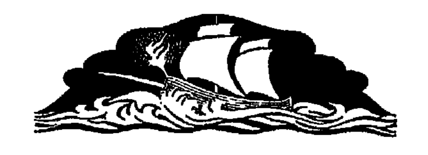
وأن يخزنه في ذلك الكشكول العجيب
الذي تحتويه جمجمتي.
وهو يخزنه هناك
دون أن يختلط حابله بنابله،
ودون أن يزحم بعضه بعضاً،
أو أن يمحو بعضه بعضاً.
بل إنَّ العقل - وههنا العجب العجاب -
يستطيع أن يُخرج من ذلك الكشكول ما يشاء
ساعة يشاء،
دون أن يَنقص ما في الكشكول أو يزيد،
ودون أن يطرأ أيّ تعديل في ترتيبه
بالنسبة إلى ما حواليه.
والعقل لا ينفكّ يتلهّى بمحتويات كشكوله
تماماً كما يتلهّى الطفل بالدمى.
مع الفارق أنَّ الطفل

ينصرف من حين إلى حين عن دماه ،
أمّا العقل فلا ينصرف لمحة واحدة عن كشكوله ،
لا في النهار ، ولا في الليل .
وهو إن لم يكن لديه من جديد يضيفه إلى قديمه
راح يقلّب القديم على ألف وجه ووجه ،
فكأنّه البقرة تجترّ ما في معدتها
دون أن يتعب فكّاها .
ولولا ذلك لما كان للعقل
أن يصل دقيقة بالتي قبلها وبعدها ،
وأمسه بيومه ،
ويومه بغده .
ولما كان له أن يتصرّف بشؤون الجسد
على ما في تصرّفه أحياناً كثيرة
من جهل ورعونة وهوى طائش .
وتماماً كما ينشغف الطفل بدمية متحرّكة

فيمضي يتفحّصها ليعرف السرّ في حركتها
ينشغف العقل بما حواليه من أشياء
جامدة ومتحرّكة
فيمضي يعالجها ليعرف سرّ تركيبها
وسرّ الحركة فيها.
وأنا ما نسيت ، ولن أنسى ، دقائق في البرّية
تسمّر فيها بصري على بقعة من التراب الناعم
لا تزيد على البوصة الواحدة.
لقد كان التراب يتحرّك
حركة لا تكاد تبصرها العين.
فشاقني أن أعرف المحرِّك.
وأجهدت بصري في التفتيش عنه ،
ولكن دون جدوى.
ومرّت دقائق طوال
والحركة البطيئة في التراب الناعم لم تنقطع.

وعيّل صبري ، أَو كاد ،
عندما أَبصرت في النهاية دويّبة حمراء ،
حجمها حجم رأْس الدبّوس ،
تدفع التراب بأَرجل لا تراها عيني .
فراح عقلي يتساءَل بمنتهى الدهشة :
أَين في هذه الدويّبة جهاز البصر ،
وجهاز السمع ،
وجهاز التنفُّس ،
وجهاز الحركة ،
وجهاز الهضم ،
وجهاز التناسل ؟
وكيف تهتدي إلى رزقها ،
وإلى أَبْناءِ وبنات جنسها ؟
وهل هي تعيش عاماً ، أَم أَعواماً ،
أَم بعض العام ، أَم بعض الشهر ؟

ولماذا هي الآن هنا
في هذا الحيِّز الضيِّق جدّاً
من رقعة الأَرض الواسعة ؟
وما غاية الأَرض وأَبناء الأَرض منها ؟
وما غايتها من الأَرض وأَبناءِ الأَرض ؟
بل ما غاية المسكونة منها ؟
وغايتها من المسكونة ؟
ولكنّ العقل يرتدّ عاجزاً ، حائراً ،
ويلوذ بالصمت الرهيب .



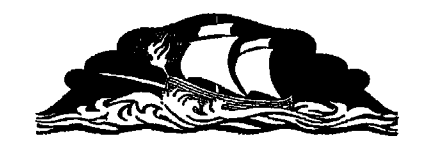
إلَّا أَن العقل عنيد ويأْبى الاندحار ،

ويرهقه الصمت الطويل .
وكأَنِّي به ضاق ذرعاً بالحواس التي اتخذها مطايا له
فراح يعمل على توسيع آفاقها وزيادة سرعتها .
فابتدع للعين المجهر
تبصر به ما كان متناهياً في الصِّغر ،
كالذريرات التي منها يتأَلَّف الجوهر الفرد .
وابتدع لها المرقب
تبصر به الكثير مما هو متناه في الضخامة ؛
كالكواكب التي تبعد عن كوكبنا
ملايين السنوات الضوئية .
مثلما ابتدع أَجهزة معقَّدة
يقيس بها أَحجام الكواكب
وسرعتها وأَبعادها .
وابتدع لها التلفزيون تبصر على شاشته
ما يجري في أَقاصي المشرق

وهي قابعة في زاوية من دارها
في أقاصي المغرب .
وضايق العقل
أن تكون الأُذُن محدودة المدى
فأسعفها بالتلفون والراديو
فباتت تسمع على مدى آلاف الأميال .
وضايقه أن تكون الرِّجل بطيئة الحركة
فاخترع السيّارة والطيارة ،
واخترع الصاروخ الذي به بلغ القمر ،
وبلغت بعض مركباته الفضائية الزهرة .
واعتزّ العقل بمنجزاته ،
وتباهى ، وتنمرد .
وخُيِّل إليه
أنه بات على عتبة اكتشاف السر الأكبر –
سرّ الأسرار –

سرّ الحياة التي تتجسّد في الأَشياء
وما هي بالشيء ،
والتي تجعل الأَشياء تنمو وتنحل ،
أَمّا هي فلا تنمو ولا تنحلّ .
إنّها في البذرة التي منها النبات ،
ولكنها ليست البذرة .
وإنها في النطفة
التي منها الطير والحيوان والانسان ،
ولكنّها ليست النطفة .
وإنها في كل سائل وجامد ،
ولكنّها ليست السائل ولا الجامد .
فهذه جميعها ، على وفرة أَشكالها وأَلوانها ،
وحركاتها وأَصواتها ،
ليست سوى الحجب
تتحجّب بها الحياة عن الحواسّ .

فكأنّي بك يا ربّي –
وأنت الحياة –
أَردت لنا –
ونحن أَطفالك –
أَن نتدرّج في إدراكك
من المحسوسات التي تجسّدتَ وجسّدتنا فيها
إلى الحياة التي هي أَنت ،
والتي أَودعتها فينا .
فالحياة لا يُدركها إلّا الحياة .



لذلك يا ربّي أَراني معذَّباً بعقلي

وبالمطايا الّتي يمتطيها لبلوغ أهدافه.
فهو منذ أن كنت وكان
ما برح يلوّح لي بالسعادة:
بالتحكُّم في قوى الطبيعة
التي تتحكَّم اليوم فيَّ ،
بالعدل والحريّة ،
بالإخاء والمساواة ،
بالعافية التي لا يمسّها مرض ،
بالمعرفة التي لا يفوتها علم شيءٍ ،
بالبحبوحة والرخاء ،
بالنظام الأمثل في مسالك العيش جميعها ،
حتّى وبالتغلُّب ــ يوماً ما ــ على الموت .
وها أنا ــ
ولست غير واحد من ملايين أبناءِ الأرض ــ
يمزّقني القلق والخوف من سوءِ المصير .

ففي كلّ يوم ،
بل في كل ساعة ،
تتواثب عليَّ مشكلاتي
ومشكلات الناس .
تتواثب من أَفواه الناس ،
ومن أَعمدة الصحف ،
ومن المذياع وشاشة التلفزيون ،
ومن أَرصفة المدن وشعاب الدساكر .
فينبري العقل لحلِّها ،
إِلَّا أَنه لا يحلّ واحدة منها –
أَو يظنّ أَنه حلَّها –
حتى يخلق اثنتين .
فمن شأْن المشكلات أَن تلد المشكلات .
والمشكلات لا تلد إِلَّا التّوائم ،
بل أَكثر من توائم .

وهكذا أَعيش ويعيش الناس
في دوّامة رهيبة من القيل والقال ،
والحركة التي لا تُفضي إلى بركة ،
والنزاع المسلَّح وغير المسلَّح .
وما أَكثر ما يكون النزاع غير المسلَّح
أَشدّ فتكاً وهولًا من النزاع المسلَّح .
لكنك يا ربّي كنت رفيقاً منتهى الرفق بي
عندما سلَّحتني بالخيال .
فبالخيال أَستطيع أَن أَنتشل نفسي ،
ولو لحين ،
من دردور البشاعات والتفاهات ،
والتهافت على السّراب .
وبالخيال أَخلق عوالم وأَمحو عوالم .
لا . لا أَخلق شيئاً من لا شيءٍ .
بل أَخلق من الموجود ما ليس بموجود .

بالخيال أُرصِّع سقف بيتي بالكواكب ،
وأَرصف أَرض بيتي بالجواهر ،
وأُكحِّل عيني بمرود الجمال ،
فلا ترى غير الجمال .
وأَمسح أَنفي بعطر الورود ،
وأُسمع أُذني نشيد الخلود .
بالخيال أَجمع الأَضداد
وأَختصر الأَبعاد .
بالخيال أَتخطَّى حدود المأْلوف والمعقول ،
وأَبصر آثار قدَميّ في كلّ تربة ،
وجذوري في كلّ كوكب ،
وأَشتمّ رائحة أَنفاسي أَينما كان
في رحاب الفضاءِ ،
وأَتلاقى في أَيّ لحظة
بكل ما عملتُ وفكَّرت ،

ونويتُ واشتهيت ،

وبكلّ بسمة انفرجت عنها شفتاي ،

وكلّ عَبرة ذرفتها عيناي .

بالخيال أُشرع أَبواب نفسي

لكلّ ما في الكون ،

فلا قريب وغريب ،

ولا أَصيل ودخيل .

وبالخيال أَترع جرار نفسي

بسلافةِ ما كان ، وما هو كائن ، وما سيكون .

فأَشرب وأَنتشي ،

ويشرب وينتشي الكون ،

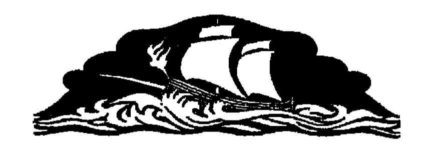
وتتمزَّق الأَقنعة المزيّفة

عن وجه الواقع المزيّف

فاذا هو خدعة ،

أَو فزّاعة

كتلك التي يقيمها صاحب الكرم في كرمه
ليخيف بها الثعالب والعصافير
وأَبناءَ السبيل.
ولكنّ الخيال، على روعته وجُرأَته،
سرعان ما ينهزم من وجه الحواسّ
ووجه العقلِ الذي من وراءِ الحواسّ.
وسرعان ما يعود العقل
فيأْخذ الدفَّة
ويقود السفينة في البحار الصاخبات،
وليس من يسأَل الربّان:
إلى أَين؟



والحدس يا ربّي !
إنه البرق في الغيوم الدُّكْن ،
وفي الدجنّات الحالكات .
يومض بغتة
فيكشح الظلمات
عن دنيوات شاسعات ، ساحرات ،
وبغتة يخبو نوره ،
وتُمحّى دربه
في مفازات الغيوم .
إلّا أنَّ ما يكشفه من دنيوات
ينطبع في أَعمق أَعماق النفس
فلا يحول ، ولا يزول .
وسانحة عجيبة هو الحدس
تمرّ في الخاطر مرور الشهاب في الفضاء ،

وأَنا لا أَدري من أَين جاءَت ،
وكيف مرَّت ،
وإلى أَين تمضي.
وأَدري أَنها تركت في النفس ثلمة عميقة
تشعّ بالنور.
بمثل هذه السانحة ،
أَو بمثل تلك البارقة ،
لا بعينيّ الترابيتين ،
أَبصرت يا ربّي فضاءَك اللامتناهي
وكلّ ما فيه
مكهرباً وممغنطاً بذريراتٍ
يستحيل على أَيّ مجهرٍ أَن يراها ،
لا اليوم ولا في أَيّ يوم.
وتراءَى لي
أَنَّ تلك الذريرات

هي الحياة ،
وأَنَّ ما يكهربها ويمغنطها ليس إِلَّا المحبّة .
وأَبصرتك يا ربّي تملأُ الفضاءَ من الأَزل
وإِلى الأَبد .
فأَنت وحدك لا يحصرك زمان أَو مكان .
وأَنت وحدك الحياة .
وأَنت وحدك المحبّة .
أَمّا أَنا فلا أَزال رهين الزمان والمكان ،
ورهين النموّ والإِنحلال ،
ورهين البغض والكراهية .
إِلَّا أَنني أَعلم حقّ العلم
أَنك لا ترضى لي أَن أَبقى كذلك إِلى الأَبد .
فهل أَنا غير طفلك الحبيب ،
وتلميذِك النجيب ،
والهيكلِ العجيب الذي بنيتَه

ليتجلّى فيه وجه الحياة ـ حياتك ،
والمحبّة ـ محبّتك ؟
ويقول لي الناس :
« هاتِ برهانك ! »
فأَحزن . وأَلوذ بالصمت الطويل ،
والصبر الجميل



وبالصبر والصمت أَعود إلى نفسي
فأَغوص إلى أَعمق أَعماقها .
وهناك أَلتقي الاشواق
التي زرعتها يا ربّي في تلك الاعماق :

شوقي إلى العدل

الذي بدونه لا يستقيم لي ميزان.

وشوقي إلى الحرّية

التي لا يحدّها حدّ،

ولا يحصرها زمان أَو مكان.

وشوقي إلى المعرفة

التي لا يخفاها عِلم أَيّ شيءٍ،

والتي بدونها لا يتمّ أَيّ كيان.

وشوقي إلى الخلود الذي بدونه

لا طعم ولا معنى للوجود.

ويسعدني أَن أَرى الزارع يتعهّد زرعه،

وأَنَّ الزرع ينمو باستمرار.

لكنّما سعادتي لا تطول،

إِذ لا يلبث الحدس الذي قادني إِليها

أَن يفرّ من الميدان

عندما تزحف عليه جيوش العقل الجرّارة.
وجيوش العقل المهيمن على الجسد
هي حاجات الجسد ومتطلّباته،
ونزواته وشهواته،
وأَطماعه وأَوجاعه،
والمخاوف التي تنهشه نهشاً
من الانحلال والاضمحلال،
وسعيه اليائس
إلى تكييف كلّ مَن حواليه وما حواليه على هواه.
واذا اعتبرنا سكّان الأَرض اليوم
في نحو ثلاثة آلاف مليون ونصف المليون
فذلك يعني
أَنَّ هناك مثل ذلك العدد من العقول
التي يحاول كلٌّ منها
أَن يكيِّف الأَرض والسماء

وجميع ما فيهما
حسب هواه.
وفي ذلك ما فيه من الغرور والجنون.
أمّا العقل الأوّل والأكبر، يا ربّي،
الذي يدبّر الكون بجزئيّاته وكليّاته،
وبآزاله وآباده،
فقلّما يلقون إليه أيّ بال.
وذلك العقل هو أنت.



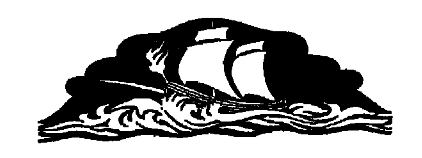
وأمّا الإرادة، يا ربّي،
فإنّي لأبتهج بها أيّما ابتهاج.

وإنَّه ليغريني ويدغدغ كبريائي
أَن أَقول أَمام نفسي وأَمام الناس:
«إِني أُريد كيت وكيت».
وأنا لو جئت أَحصي الأُمور التي أَردتها
وحصلتُ عليها فاغتبطت،
والأُمور التي أَردتها ولم أَحصل عليها فانسحقت
لما استطعت أَن أَحصيها.
إِلَّا أَن حافظتي تعجّ بذكريات الساعات
التي أَمضيتها في التحرّق والتمزّق،
والليالي التي سهرتها مع القلق والأَرق،
لا لسبب
إِلَّا لأَنَّني أَردت أَشياءَ وأَشياء
فلم أَدركها،
وكثيراً ما أَدركت نقيضها بالتمام،
وفي ذاكرتي كذلك آثار قنواتٍ

كانت في بعض الساعات مترعة بالدموع ،
وآثار أَلواح انحفرت عليها
أَكثر من « آخٍ » و« آهٍ » و« أَوّاهٍ » ،
وآثار أَسارير سوّدتها الخيبة ،
وآثار عزيمة هشَّمها الإندحار ،
وآثار فلولٍ هزيلة
هي فلول إرادتي الهزيلة
تتهافت في انسحابها
من وجه الارادة الكونيّة
التي هي إرادتك .
وكيف لإرادتي ، يا ربّي ، أَن تنازل إرادتك ؟
كيف لورقة على غصن
أَن تريد ما لا يريده الغصن؟
بل ما تريده الشجرة كلها ؟
بل ما تريده التربة والشمس والبحر والهواء ؟

بل ما يريده الكون ؟
كيف لي ، وأَنا أَجهل أَمسي القريب والبعيد ،
أَن أَعرف ماذا يحمله إِليّ يومي
فأُريده وأَهنأَ ،
ولا أُريد غيره فأَشقى ؟
عظيم هو الفرق بين إرادة العارف
وإرادة الجاهل .
وأَنا جاهل يا ربّي .
وأَنت وحدك العارف .
لكنّما الجهل هو الطريق إلى المعرفة ،
وهو طريق كثير الحُفَر والأَخاديد والمزالق ،
مفروش بالقتاد ، وشظايا الزجاج .
ولا بدّ لسالكه من أَن تدمى يداه ورجلاه ،
ويعرق فكره وقلبه ،
وتخور قواه

قبل أَن يدرك الهدف.
وإلَّا فأَيّ خير لنا في معرفةٍ
لا ندفع ثمنها أَرقاً وعرقاً ودماً؟
إنها كالأَكل والشرب في المنام.
ولأَنّي جاهل وأُقرّ بجهلي،
ولأَنك عارف وينبوع المعرفة،
فخذ يا ربّي بيدي
لأَقطع طريقي الطويل، الشائك، العسير إليك.
حتى إذا ارتويت من ينبوعك
تمكّنت من أَن أَقول:
«إني أُريد»
فكان لي ما أُريد.



طفلك أنا ، يا ربّي .

والقوى الهائلة التي أودعتها كياني

لا زالت جميعها في طور الطفولة .

وأنت الذي يتعهّدها ، لا أنا .

وعليّ أن أتحمّل رعونتها وطيشها .

ريثما تبلغ سنّ الرشد ـ رشدك

نطقي نطق الأطفال .

عقلي عقل الأطفال .

خيالي خيال الأطفال .

طفل هو حدسي .

وطفلة هي إرادتي .

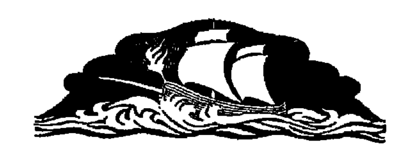
وطفلة هي المعرفة الناتجة عن هذه كلّها :

معرفة الخير والشرّ .

ومثلما يلهو الطفل بالدُّمى
أَلهو أنا بهذه القوى .
وأَحَبّ تلك الدُّمى إلى قلبي
هي الدُّمية التي منها سائر الدُّمى ،
والتي أَدعوها « أَنا » .
فهذه أَعتزّ بها منتهى الإِعتزاز ،
وأُنافح عنها بكل ما أَملك
من حيلة ، ودهاءٍ ، وقوّة ،
وأُريد لها أَن تبقى ما بقي الزمان .
ونسيت ، يا ربّي ، — أَو تناسيت —
أَنَّ هذه الـ« أَنا » — أَو هذه الذات —
لا وجود لها إِلَّا في ذاتك ،
ولا حياة لها إِلَّا في حياتك ،
ولا إِرادة لها إِلَّا من إِرادتك .
ولأَنَّها طفلة ، جاهلة ، مزهوَّة ، رعناء

أَبَت إلَّا أَن تستقلّ بذاتها عن ذاتك ،
وبإرادتها عن إرادتك ،
وبعِلمها عن عِلمك .
فكانت « الخطيئة » ،
وكان جزاءَ الخطيئة الموت :
موت الذات المنفصلة عن ذاتك .
وموت الإرادة المستقلَّة عن إرادتك .
ثم كان طريق التكفير عن الخطيئة ـ
طريق الخير والشرّ ـ
ويا لطوله ، ويا لهوله من طريق !
وهذا الطريق ، متى بلغنا منتهاه ،
عرفنا أَنَّ الخير هو في مطاوعة إرادتك ،
وفي التعرّي من الذات المنفصلة عن ذاتك ؛
وأن الشرّ هو في مقاومة إرادتك ،
وفي التمسُّك بالذات المنفصلة عن ذاتك .

وعندئذٍ نعود إليك
لنحيا بك وحدك، ولنفنى فيك.



هكذا، يا ربّي، يتراءى لي طريقي منك
وطريقي إليك.
وأنا لست أعرف
أين أَصبحتُ اليوم من طريقي.
وأَعرف أَنني لا أَزال أَمشي،
وعلى كتفي صليبي،
وأَنني سأَظلّ أَمشي
إلى أَن يتمّ التلاقي

بيني وبين رسولك الأعظم.
فأنا وإياه على موعد.
وهو الذي ضرب الموعد، لا أنا.
وهو وحده يعرف
متى، وأين، وكيف يتمّ اللقاء.
أمّا أنا فأجهل ذلك منتهى الجهل.
أوَليس من الغرابة بمكان
أن يقوم موعد بين اثنين
فلا يعرف زمانه ومكانه غير واحد منهما؟
ولكنْ تلك هي حالي مع رسولك.
ورسولك صارم لا يقبل أيّ تأْجيل
أو أيّ اعتراض.
ولقد علّمتني الخبرة أنّ رسولك
لا يغفل طرفة عين عن تأْدية رسالته.
فهو لا ينفكّ يضرب المواعيد

لا لأَبناء البشر وحسب ،

بل لكلّ حيّ وغير حيّ في الأَرض

وفي فضائـك الذي لا نعرف له بداية

أَو نهاية .

فهذه كلّها على مواعيد متفاوتة مع رسولك .

بعضها يتلاقى وإياه في هذه الدقيقة

أَو في التي تليها ،

وبعضها لا يتلاقى وإياه

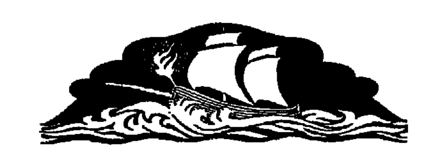
إلَّا بعد ملايين السنين .

ولكنها جميعها ستتلاقى وإياه حتماً

في مكانٍ ما وزمانٍ ما .

ذلك الرسول هو

الموت .



أَعرف ، يا ربّي ، –

أَو أَظنُّني أَعرف –

أَنَّ ابن الانسان

الواهم أَنه يملك ذاتاً غير ذاتك ،

وإرادة غير إرادتك

ينبغي أَن يموت –

ينبغي أَن يُصلب ويتأَلَّم ويُدفن –

ليتخلَّص من وهمه ،

وينهض من قبره

وهو ليس فيما بعد ابن الانسان

المعرَّض للولادة والموت ،

بل ابن الله الذي لم يولد

فلا يمكن أَن يموت.

أَجل. إِنّي لأَعرف ذلك

أَو أَظنّ أَني أَعرفه.

إلَّا أَنني لا أَعرف.

وكنت أَودّ لو أَعرف.

لماذا، يا ربّي،

يتأَلَّم ويموت كلّ شيءٍ

وكلّ حيّ

في عالَمك الذي لا نعرف له بداية

أَو نهاية؟

إن يكن موت ابن الانسان كفَّارة

عن وهمه الخاطئ

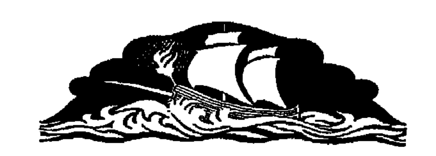
بأَنه يملك إِرادة غير إِرادتك،

وكياناً غير كيانك،

فعمّاذا يكفّر الحَمَل المذبوح بسكِّين القصّاب،

أَو الممزَّق بأَنياب الذئب ؟
ومَنذا يستطيع أَن يتخيَّل آلامه ؟
وعمّاذا يكفّر الذئب
ترديه رصاصة من بندقية صاحب الحَمَل ؟
أَو الأَرزة العتيّة تقدّها صاعقةٌ
من أَعلى إلى أَسفل
فتحرق حتى الجذور في التراب ؟
أَو الصخرة الصّلدة تفتّتها المطارق
والبارود والديناميت ؟
أَو الكوكب الهائم في الفضاء
ينشطر إلى كواكب تمضي جميعها تهيم في الفضاء ؟
عمّاذا تكفِّر سائر مخلوقاتك
التي ليست على صورتك ومثالك كما هو الانسان ؟
فهذه جميعها –
أَجل جميعها –

على موعد مع الموت ،
ومع كلّ ما يحمله الموت
من غصص وآلام مبرّحة .
والألم لا يكون إلّا حيث تكون اللذّة .
فعلى قدر ما تكون اللذّة يكون الألم بفقدانها .
وأنت ، يا ربّي ، قد جعلتَ لذّة البقاء
أعظم لذّة
إذ فرشت الأرض والسماء
بعجائبك التي لا تُحصى ولا توصف ،
وأعطيت كلّ مخلوق
قدرة الاستمتاع بها على قدر طاقته .
وإذ ذاك فلا عجب
أن يكره كلُّ حيّ في الأرض
رسولَك الموت .



يبني الانسان بيتاً ليسكنه

فلا يلبث البيت أن يصبح بعضاً منه .

إذا احترق البيت أو انهدم

احترق أو انهدم شيء في نفس صاحبه .

فكيف بذلك البيت إذا كان هيكلًا عجيباً

كالجسد الذي هيّأْتَه ، يا ربي ، للانسان ؟

في ذلك الهيكل يحيا الانسان عمره ـ

طال أو قصر .

فيه ينام ويقوم .

فيه يأْكل ويشرب .

فيه يحلم أحلامه العِذاب وغير العِذاب .

فيه يقيم ولائمه ومآتمه .

فيه تنقف وتعشّش أَفكاره وهواجسه ،

ونيّاته وشهواته البِيض والسُّود .

فيه يُضرم نيران حبّه ونيران كرهه .

فيه يقدّم قرابينه وفيه يرتكب الموبقات .

فيه ينعم بجمالات الفردوس

وفيه يُشوى بسعير جهنَّم .

فيه يرتفع إلى سنائك الأَبهى

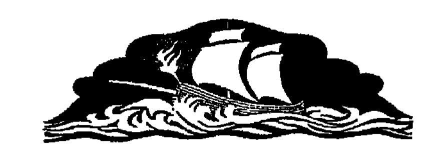
وفيه ينحدر إلى أَظلم ظلمات العدم .

ثم يأْتيه رسولك الموت

ليقول له بلهجة الآمر الذي لا مردّ لأَمره :

«أُخرجْ من هذا الهيكل

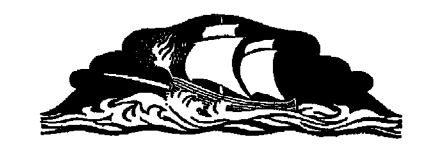
فهو ليس بعد اليوم لك !»



أَفَيُلام الانسان عندئذٍ
إذا هو هتف إليك
كما هتف ابن مريم وابنك قبيل آلامه :
«أَبتاه ! إِذا أَمكن فلتعبر عنّي هذه الكأْس ! » ؟
هذا الهيكل الرائع الذي هيّأْته لي
لا من خشب وحجر وحديد ،
بل من لحم وعظم ودم ،
والذي جعلتني قيِّماً عليه
وكاهناً لمذبحه ،
كيف لي ، يا ربّي ، أَن أَهجره
عارفاً حقّ المعرفة أَنه سيتهدَّم
ويغدو وليمة للبلى ؟

كيف لي أَن أتخيَّل عيني
وقد هرب منها النور
فباتت لا تحرّك جفناً ولا تهشّ لمنظر ؟
كيف لي أَن أتخيّل يدي
التي تخطُّ الآن ما تخطّ
وقد هجرَتْها الحرارة والحركة
فأَمست وكأَنَّها الحطبة ؟
كيف لي أَن أصغي بأُذن خيالي
إلى قلبي فلا أَسمع له نبضاً ،
وإلى رئتيّ فلا أَسمع لهما نفَساً ؟
كيف لي أَن أَنظر بعين خيالي
إلى رجليّ
فاذا بهما أَجمد من الجماد ؟
كيف لي أَن أُفكِّر في دماغي العجيب
الذي منه تصدر الأَوامر إلى كلّ قطرة من دمي ،

وكلّ نسمة في صدري ،
وكل خليّة في جسدي ،
والذي فيه أَختزن جميع أَحداث حياتي ، –
كيف لي أَن أُفكّر في ذلك الدماغ
وقد بات عجينةً هشّة
لا خير فيها إلّا للدود ؟
أَجل. كيف لي أَن أُفكّر في ذلك كلّه
من غير أَن أَهتزّ لوعةً وحرقةً وأَسى
حتّى أَعمق أَعماق نفسي ؟



إي. رهيب هو الموت ، يا ربّي.

رهيبٌ. رهيبٌ. رهيبْ.
وأَرهبه على الاطلاق موت الأَطفال،
وموت المرضعات،
ثمّ ذلك الموت الذي يسبِّبه الناس للناس
في ساح الحروب
حيث تتمزَّق أَجسادهم بالقنابل،
أَو تحترق بالنار،
أَو تغدو طعاماً للأَسماك في قاع البحار.
حيال الموت ورهبة الموت
ما أَتفه همومي وهموم الناس،
ومشكلاتي ومشكلاتهم،
وأَفراحي وأَتراحي،
وأَفراحهم وأَتراحهم!
إِنّها لَأَتفه من عصافة البيدر.
وما أَوهى الحصون التي أَتحصَّن بها ويتحصَّنون!

إنَّها لأَوهى من نسيج العنكبوت .
في الأَرض آثار كثيرة يباهي بها الناس ،
ويحافظون عليها محافظتهم على أَحداقهم .
إنها من مخلّفات أَسلافهم
الذين بلغوا مرتبة رفيعة في الفنّ المعماري
وغيره من الفنون .
ولكنَّ الموت يفتّتها يوماً بعد يوم
بمعاوله ومطارقه ، ومناشيره وأَزاميله .
وسيأْتي يوم تزول فيه تلك الآثار من الوجود .
بل سيأْتي يوم
تتبدَّل فيه الأَرض غير الأَرض ،
والنجوم غير النجوم .
حتّى الشمس لن تبقى شمساً إلى الأَبد .
لا . لن يبقى شيء في الفضاء
لا تمسّه يد الموت فتحوّله شيئاً آخر .

ويبقى فضاؤك اللامتناهي
لا يتقلَّص ولا يتمدَّد ،
ولا يزيد أَو ينقص ،
ولا يتحوّل أَو يتبدّل .
وتبقى أَنت ، يا ربّي ، تملأُ الفضاء .
فما هو نصيبي من فضائك ،
وأَنا طفلك ،
وعلى صورتك ومثالك ؟



من الفضاء جاءَ النَّفَس
الذي حرّك مفاصلي

حتّى قبل أَن خرجت من بطن أُمّي.
وإلى الفضاء سيعود نَفَسي
ساعة يدركني الموت ،
فتهرب الحرارة والحركة من جسدي
ويمسي جماداً كباقي الجماد.
يمرّ في خاطري ،
كما يمرّ البرق في السحاب ،
أَنَّ الفضاء بالنسبة إلى الجسد الكونيّ
هو كالدماغ بالنسبة إلى الجسد الانساني.
فمثلما يحفظ الدماغ كلّ شاردة وواردة
من حياة صاحبه ،
دون أَن يختلط بعضها ببعض ،
أَو يزحم بعضها بعضاً ،
أَو يمحو بعضها بعضاً ،
كذلك يحفظ الفضاء

كلّ ما كان في الكون
منذ أن كان الكون ،
فلا تضيع منه نقطة
ولا يُحذف منه حرف .
ونحن مهما أَوغلنا
في فنون القراءَة والكتابة ،
وفي تقصّي مظاهر الأَشياء ومسالكها ،
سنبقى أُمّيين ،
وسنبقى أَطفالًا طائشين ، جاهلين
إلى أَن يصبح في إمكاننا
أَن نقرأ ما في أَدمغتنا ودماغ الكون ،
وأَن نفهم ما نقرأ .
ويوم يتمّ لنا ذلك –
وهو لن يتمّ في عمر واحد
بل في سلسلة طويلة من الأَعمار –

سنبارك الموت ،

وسندرك أَنه كان انتقالاً بنا

من فصل إلى فصل

في كتاب كونك العجيب ، اللامتناهي .

وإلى أَن تكون لي المقدرة

على قراءة ما في ذاكرتي وذاكرة الكون

أَهِّلني ، يا ربّي ، أَن أَتقبَّل الموت

رسولاً منك لا يحمل لي إلَّا الخير ،

ومعلِّماً يتدرَّج بي من إرادتي العمياء

إلى إرادتك البصيرة ،

ومن ذاتي التي تموت

إلى ذاتك التي لا تموت .

ثمّ أَهِّلني

أَن لا أُسجِّل بعد اليوم

في كتاب ذاكرتي

ما لو قرأْتُه وقرأه الناس ،
ولو بعد أَلف عام ،
ندمت عليه وخجلت به
أَمام نفسي وأَمام الناس .
فكان لي من ندَمي ومن خجلي
نار تشويني فلا تترمّد ،
ولا أَترمّد .
ولَكَمْ كنت أَوَدّ ،
لو كان في مستطاعي ،
أَن أَمحو من سجلّ ذاكرتي وذاكرة الكون
آثار الكثير ممّا قُلتُه وفعلته ،
ونويته واشتهيته ،
وفكَّرت فيه وحلمت به ،
وفرحت به أَو بكيت عليه .
ولكنّ «ما كُتِب قد كُتِب»

ولا سبيل لمحوه .
إنّما هناك سبيل لتعقيمه
أو لتعطيل مفعوله
بكتابتي ما هو عكسه بالتمام .
كأنْ أكتب الغفران بدل الحقد ،
والعفّة بدل التهتُّك ،
والمحبّة بدل الكراهية .
ويا لَغِبطة الذين طغت المحبة في ذاكرتهم
على كلّ شيءٍ عداها .
أولئك هم الذين قطعوا
طريق الخير والشرّ حتى نهايته
فوجدوا ذاتهم الحقّة ،
وانفتحت لهم أبواب فردوسهم المفقود
فدخلوه ليقيموا فيه
خارج نطاق الزمان والمكان ،

وأَبعد من متناوَل الموت.
أَمّا الذين هم دونهم نصيباً
من ملكوت المحبّة
فمقضيّ عليهم،
عمراً بعد عمر،
أَن يتناولوا من ذاكرتهم
وذاكرة الكون
ثمار ما أَلقوا فيهما من بذور الخير والشرّ.
ذلك هو ثوابهم.
وذلك هو عقابهم.
وتلك هي دينونتهم.



ثمّة بارقة أُخرى تمرّ في خاطري ، يا ربّي .
وهي أَنَّ ما يحتويه الكشكول العجيب
الذي ضمن جمجمتي
ليس مادّة تُحَسّ أَو تُقاس
أَو توزن في موازين .
إنَّه لَمجموعة هائلة من الصُّوَر الذهنية
لكلّ ما خبرته في حياتي .
ما من شيءٍ أَبصرتُه على الأَرض أَو في السماء ،
ما من شيءٍ لمسته ، أَو تذوّقته ، أَو شممته ،
ما من صوت سمعته ؛
ما من كلمة نطقت بها أَو كتبتها ؛
ما من حركة عفويّة أَو غير عفويّة قمت بها ؛
ما من حُلُم حلمته وأَمَل أَمّلته ؛
ما من فكرة ، أَو نيّة ، أَو رغبة ،

أَو عاطفة مرّت في خاطري
إلا كانت لها صورة في دماغي.
ويلوح لي، يا ربّي،
أَنَّ الدماغ الذي ارتسمت فيه تلك الصوَر
بطريقة عجائبيّة تفوق إدراكي وإدراك أَيّ إنسان
هو الذي سيبلى لأَنَّه من المادّة
وإلى المادّة يعود.
أَمّا الصُّوَر ذاتها فلن تبلى
لانها ليست من المادَّة.
ثمَّ يلوح لي أَنَّ تلك الصُّوَر مجتمعةً
تكوِّن نواة الذات المتطوّرة التي أَدعوها
«أَنا»
والتي تميّزني من كلّ إنسان آخر في الأَرض.
وهذه الذات ستبقى تتطوّر على مدى الزمان
إلى أَن تُدرك ذاتك

فتفنى فيها

كما تفنى حبّة البَرَد في الجدول ،

والجدولُ في النهر ،

والنهرُ في المحيط .

وفناؤها إذ ذاك ليس اضمحلالاً ،

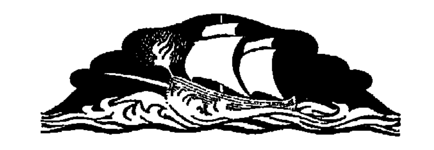
أو تلاشياً ،

أو انتقالاً من الوجود إلى اللاوجود .

إنّه ، على العكس من ذلك ،

انتقال من الوجود المتطوّر ، المحدود ،

إلى الوجود السرمديّ الذي بغير حدود .

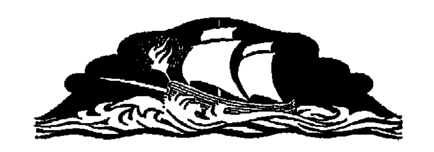


ذلك ما يتجلّى لي ، يا ربّي .
ساعة أُناجيك ،
وساعة أُصغي إليك.
في مثل تلك الساعة ـ
وقد تكون رفَّة جفن لا أَكثر ـ
تتعطَّل عقارب الزمان ،
وتكفّ الأَرض والأَفلاك عن الدوران ،
ويغفو العقل البهلوان ،
ويسقط عن كتفي صليبي ،
وعن عنقي نِيري ،
وتخرس أَلسنة شهواتي ،
ويخفّ جسدي ويشفّ
حتى لأَغدو وكأَنني روح ولا جسد.
ولَكَمْ تمنَّيت لتلك الحالة لو أَنها لا تحول.
ولكن هيهات !

فالهيكل الذي أعيش فيه ،
والعالَم الذي يحتوي ذلك الهيكل ،
يأْبيان إلّا أَن يشوّشا عليّ
لذَّة الاتصال بك.
فلا أَكاد أَنصرف إليك
حتى أَنصرف عنك.
كم مرّة حاولت أَن أَمسح عيني
من مشاهد الأَرض والسماء —
جميلها وقبيحها —
كيما أَشهد بهاءَك وحدك ،
فما لبثَتْ عيني
أَن عادت ترشف من مفاتن الأَرض والسماء
فلا ترتوي ،
أَو تدمع لما في الأَرض وأَهل الأَرض
من بشاعات

حتى لَيكاد خزّان دمعها أَن ينضب !
كم مرّة أَفرغت أُذني
من أَصوات الأَرض والسماء ـ
ما كان منها في مثل نعومة شدو الهزار
أَو في مثل خشونة نهيق الحمار ـ
كيما لا تسمع غير صوتك ،
فما عتّمتِ الأُذن أَن عادت فامتلأَت
بأَصوات تنشرح لها النفس غاية الانشراح
وأَصوات تتقزّز منها منتهى التقزّز !
كم مرّة غربلت فكري من كلّ فكرة
خلا فكرة الاستسلام لك ،
وصفّيت قلبي من كل شهوة
خلا شهوة الاتّحاد بك ،
وإِذا بفكري يعود فيفتح بابه على مصراعيه
لأَفكار غير فكرة الاستسلام لك ،

وإذا بقلبي يعود فيطفح بشهوات كثيرة
غير شهوة الاتِّحاد بك .



ها هي طفلة في ربيعها الرابع تمتطي درّاجة حمراء
ذات ثلاثة دواليب
وتدور بها من غرفة إلى أُخرى في البيت ،
وبسرعة فائقة ،
دون أَن ترتطم بباب أَو بكرسيّ .
وعندما تبلغ المكان الذي أَنا فيه
وتراني منكبّاً على الكتابة
تترجّل عن درّاجتها ، وتقترب منّي ،

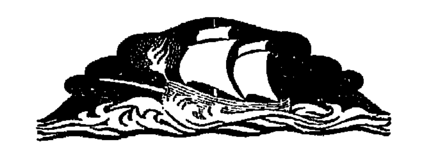
وتصرّ على الجلوس في حضني .
ولا يجديني معها اعتذاري أَنني «مشغول» ـ
فالذي أَكتبه لا يعني لها شيئاً ـ
وقد لا يعني شيئاً لآلاف الذين هم أَكبر منها بكثير .
وتنتهي الجولة بأَن تجلس الصغيرة في حضني
وتمضي تمطرني بوابل من الأَسئلة :
«جِدّو أَيْش تكتب ؟
جدّو لَيْش تكتب ؟
جدّو بتحبّني ؟»
وعندما أُجيبها بالإِيجاب على سؤالها الأَخير
تطوّقني بذراعيها
وتطبع أَكثر من قبلة على وجهي وهي تردّد :
«أَنا بحبّ جدّو قدّ البحر
وقدّ السما والأَرض» .
فيكاد قلبي يقفز من بين ضلوعي

وأَتمنّى لو كان لي أَن أَلُفَّ الطفلة بشغافه ،
وأَن أَدرأ عنها كلّ سوءٍ ،
وأَن أَخترق حُجُب الماضي والمستقبل
فأَعرف من أَين جاءَت ،
وإِلى أَين تمضي ،
وما هي الدرب المفروض عليها قطعها في دنياها ،
وبماذا فَرَشَتها يد القَدَر .
وتستأْنس الطفلة في حضني
فلا تلبث أَن تمدّ يدها إلى قلمي ،
ثمّ إِلى الأَوراق التي أَمامي ،
فأَزجرها .
وكان حريّاً بي أَن أَزجر نفسي .
فما أَدراني أَنها ليست أَحقّ منّي
بقلمي وبأَوراقي ؟
ونحن كذلك إذا بأُمّ الطفلة تطلّ

لتذكّرني بأَن وقت الأَكل قد حان:
«أَنْكُولْتي! مُشْ ناوي تتغدّى اليوم؟»
وأُمّ الطفلة هي ميّ - إبنة أَخي نجيب -
التي ما برحت تسهر على راحتي الجسديّة والنفسيّة
منذ ثلاثين سنة.
وكم أَنا مدين لذوقها الرفيع،
وإحساسها المرهف،
ودرايتها في تدبير المنزل،
وتدبير شؤونها مع الناس،
وحسن استقبالها للضيف،
وتفانيها في محبّة الذين يعرفون لمحبَّتها قيمة!
و«أَنكولتي» كلمة نحتتها ميّ من كلمة
«أَنْكِلْ» الانكليزية التي تعني «العمّ».
وذلك زيادة في التحبُّب.
وهناك والد ميّ، وشقيقاها يوسف ونديم

وصغارهما وزوجتاهما ،
وجمهور غفير من الأَقرباء والأَصدقاء والقرّاء والمحبّين.
هؤلاء جميعهم ،
مع كلّ ما انفتحت عليه عيناي من مفاتن الأَرض والسماء
وكلّ ما مسّ قلبي من إنسانيّة في سلوك الناس ،
هم الوجه المشرق من حياتي الآن وههنا ،
والوجه الذي يغريني التطلُّع أَبداً إليه ،
والذي يشدّني إلى الأَرض بأَمراس من حديد .
ولذلك يشقّ عليّ أَن يأْتي يوم
يغيب فيه عنّي
وأَغيب عنه .
وأَنسى أَنَّ الأَرض وكلّ ما عليها إلى الزوال ،
وأَنني أَحمل صورة ذلك الوجه في ذاتي
أَينما كنت وكيفما تحوّلت ،
وأَنَّ وجهك وحدك هو وجه الحياة

التي لا تحول ولا تزول.



أمّا الوجه المظلم من حياتي على الأرض
فإنّي أُبصر ملامح منه في كلّ ما يجري حواليّ.
أُبصرها في الكثير من مظاهر الطبيعة؛
في الزلازل والبراكين،
في الصواعق والأعاصير،
في القيظ يشوي الأرض ونباتها
وحيوانها وإنسانها بالعطش،
وفي السيول التي تبلغ حدّ الطوفان
فتُغرق المساكن والسكّان،

وتتلف الزرع والضرع ،
وتترك الأَرض خراباً يباباً .
وأُبصرها في صراع المخلوقات بعضها مع بعض ،
ذلك الصراع العنيف ، الرهيب ،
صراع البقاء والفناء ،
الذي لا تخلو منه غابة أَو فلاة ،
ولا جبل أَو واد ،
ولا جدول أَو بحر ،
والذي لا هدنة فيه ولا هوادة
لا في الليل ولا في النهار ،
ولا في أَيّ فصل من الفصول .
وأُبصرها ، أَكثر ما أُبصرها ،
في صراع الناس مع الطبيعة
ومع بعضهم بعض .
يشكو الناس من أَنَّ فوق إرادتهم إرادة ،

وفوق سلطانهم سلطاناً ،
ويشوقهم أَن تكون إِرادتهم هي العليا ،
وأَن يكون سلطانهم هو المُطاع .
ولذلك يلجأُون إلى كلّ ما يملكون من فطنة وذكاء ،
وحيلة ودهاء ،
ليفرضوا إرادتهم وسلطانهم
على جميع المخلوقات في الأَرض
التي هي أَقلّ منهم حيلة ودهاء ،
وفطنة وذكاء .
وذلك أَبداً هو شأْن الضعيف .
فهو يقتصّ لضعفه تجاه من هم أَقوى منه
بالتنكيل بمن هم أَضعف منه .
هكذا ذلَّل الانسان لخدمته شتّى البهائم والطيور :
ذلَّل الفيل والجمل ، والثور والحصان ،
والبغل والحمار ، والكبش والتَّيس ،

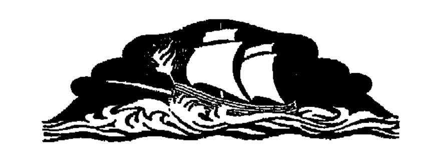
والأُوزَّة والبطَّة ،
والدجاجة والحمامة ، وغيرها وغيرها .
والتي لم يستطع تذليلها من المخلوقات
راح يتعقَّبها بشتّى الاحابيل أَو بالرصاص .
فما نجا من شرّه سكَّان الغاب
كالأَسد والنمر ، ووحيد القرن والخنزير البرّي ،
والوعل والأَيّل ، والأَفاعي على أَنواعها .
ولا سكَّان الفلوات كالنعامة والغزال ،
ولا سكَّان البحار من الحوت فما دون .
ولا مجنّحات الجوّ من النسر وحتّى أَصغر عصفور .
ولا نجت من أَذاه شتّى الزحّافات والحشرات .
فمن هذه ما يزعجه في راحته الجسديّة ،
ومنها ما يؤذيه في نتاج أَرضه .
لذلك ابتدع لها أَصنافاً وأَصنافاً من السموم
التي تبيدها وتبيد معها الكثير من الحشرات الأُخرى ،

ومن الأَعشاب والطيور
التي هي عون للإِنسان في حياته.
وليس يخامر الانسان أيّ الشكّ
في أَنَّ من حقِّه المطلق
أَن يعامل المخلوقات التي دونه مثل تلك المعاملة،
فيُرهق منها ما يرهق بالعمل الشاقّ،
ويذبح منها ما يذبح ليقتات بلحمه
وينتفع بجلده وعظامه،
ويقتل منها ما يقتل،
باسم العِلم أَو بأَسم «السبورت»،
ويصطاد منها ما يصطاد حيّاً
ليحبسه في أَقفاص من حديد،
أَو في زرائب ضيِّقة مصوّنة،
كيما يُتاح للناس أَن يبصروه.
وقطّ لا يخطر للانسان في بال

أَنَّ لتلك المخلوقات نصيباً في الأَرض والسماء
لا يقلّ عن نصيبه ،
وأَنَّها تحبّ البقاءَ مثلما يحبّ البقاء ،
وأَنَّ نصيبها من البقاء
ليس هبةً منه . أَو عملًا من أَعمال يديه
يتصرّف به على هواه ،
وأَنَّه يحاسَب عن تصرّفه حساباً دقيقاً ، عسيراً ،
وأَنَّ لا مهرب له من ذلك الحساب .
فواعجبا لعبدٍ يشكو ظلم سيِّده
وإذا به عنوان الظلم والجور والتعسُّف
حالما تُتاح له الفرصة
أَن يكون سيِّداً
على شيءٍ من الأَشياء ،
أَو إنسان من الناس ،
أَو على مجموعة من الأَشياء والناس .

كم من حاكمٍ أفقر محكوميه ،
وأذلَّهم وظلمهم أفظع الظلم
بإسم السلطان المعطى له عليهم
من قِبَل « القانون » ،
أو مِن قِبَل التقاليد الدينيّة والاجتماعية !
كم من زوج جَعَل من زوجه
ما يشبه الممسحة أو الخرقة البالية
لأَنَّ القانون جعله قيِّماً عليها !
كم من معلِّم « أَدَّب » تلاميذه بسلطة القانون
وكان أَحقّ منهم بالتأْديب !
كم من صاحب عمل أَجاع عمّاله
لأَنه يملك المال والسلطان وهم لا يملكون ،
ولأَنَّ القانون يحميه ويحمي ماله وسلطانه !
كم من راعٍ دينيّ أَجاع قطيعه إلى نعمة ربِّه
وأكرهه على السير وراءه

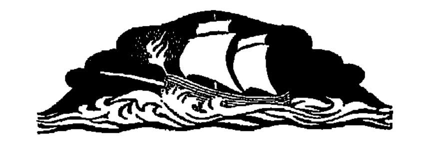
بـأسم السلطة المعطاة له «من فوق» !
كم من قائد حربيّ
زجّ بجحافله في أَتاتين من النار
لأَنَّ القانون يخوِّله أَن يتصرّف بجحافله
حسبما تقتضيه «حكمته» !
وما هو القانون ؟
طوق من الحديد يصنعه الناس
ليطوّقوا به رقاب بعضهم البعض
بصرف النظر عن الفوارق العظيمة
بين رقبة وأُخرى .
فمثلما الفرق شاسع
بين رقبة النملة ورقبة الفيل
كذلك شاسع هو الفرق بين غبيّ ونبيّ .
ومن الإِثم أَن يُطوَّق الاثنان بطوق واحد .



إي. ظالمٌ أَنا ، يا ربّي ،
وظلمي أَقبح الظُّلم .
إنه ظلم السجين وقد بات سجّاناً .
أَو هو ظلم العبد
وقد أُسْنِدت إليه وظيفة المشترع
والمنفِّذ للشريعة .
وظلمي هذا
هو الذي يمسح وجه حياتي على الأَرض
بالكثير من الظلام .
وهناك كهوفٌ أُخرى وأُخرى
تتسرَّب منها الظلمة إليَّ

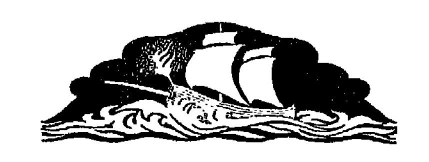
فتسدل على وجه حياتي
قناعاً من الحزن والكآبة والأسى .
وذلك القناع يحجب عنّي
سناءَ وجهك الذي ما شوَّهَته ظلمة قطّ .
من تلك الكهوف آلاف المستشفيات والمصحّات
وبيوت المجانين المنتشرة في الأرض
حيث الملايين من الناس
يستسلمون لعقاقير الطبيب أو لمبضع الجرّاح
بغية التخلُّص من أوجاعهم المبرّحة ،
وحيث الرحمة تباع بالمثقال ،
وبالفلس والدينار ،
وحيث يستميت الناس ،
كبيرهم وصغيرهم ،
وغنيّهم وفقيرهم
في سبيل تمديد آجالهم على الأرض

ولو لعامٍ ، أَو لشهر ، أَو ليوم ،
غير آبهين بما يحمله لهم ذلك اليوم ،
أَو الشهر ، أَو العام من أَوجاع جديدة ،
وغير حاسبين أَيّ حساب
للمواعيد التي بينهم
وبين رسولك الموت .



وماذا أَقول في السجون والمعتقلات
السياسيّة والعسكرية ،
وفي معسكرات اللاجئين
المقتَلَعين بجذورهم من دورهم وحقولهم ؟

إنَّها لشهادة صارخة سوداء ،
يؤدِّيها الانسان ضدّ نفسه ،
وضدّ النُّظُم والمجتمعات التي خلقها
ليعيش معها في طمأْنينة وسلام
فإذا به أَبعد ما يكون
عن الطمأْنينة والسلام .
إنها لكهوف
فيها من الظلمة طبقات فوق طبقات .
فلا عجب
أَن يتسرَّب شيءٌ من ظلامها إلى نفسي
ما دُمتُ واحداً من الناس .
ولا عجب
أَن تؤنِّبني نفسي أَعنف التأْنيب
كلَّما سمحتُ لذلك الظلام
أَن يقوم حاجزاً بيني وبين نورك السرمديّ .



ثمّ ماذا أقول في تلك الكهوف الرهيبة
التي يدعونها وزارات الحرب أو وزارات الدِّفاع ،
والتي لا تخلو منها أُمّة في الأَرض ؟
بل هي تكاد تكون الوزارة الأَهمّ
في جهاز كلّ دولة أو دويلة
من دول العالَم ودويلاته .
تلك الوزارات
هي التي تستأْثر بخير الأَدمغة في بلادها ،
أَو الأَدمغة التي تبتاعها من خارج بلادها
فتجنّدها لا لتكثير خيرات الأَرض

وتوزيعها بالقسط على أبناءِ الأَرض ،
ولا لتحويل الصحارى إلى جنّات غنٍّ ،
أَو لتفريج كربة الانسان أَينما كان
ومن أَيّما جنس أَو لون كان ،
بل لتستنبط الأَسلحة الجهنّمية
التي من شأْنها أَن تحرق الأَخضر واليابس
في الأَرض ،
وأَن تحوّل عمارها خراباً ،
وأَن تُزهق أَرواح الملايين
في مثل رفَّة الجفن ،
وأَن تجعل من المرضع والرضيع ،
ومن العاشق والمعشوق ،
ومن المؤمن والملحد وكلّ أَصناف البشر
طعاماً لذوات الظفر والناب ، والمخلب والمنسر ،
أَو سماداً للأَرض .

أَو رماداً تذروه الرياح .
وهذه الأَسلحة كلَّما زاد فتكها
زادت قيمتها في حساب وزارة الدفاع .
كالقنابل الذرّية والهيدروجينيّة ،
والقنابل الجرثومية ،
والقنابل المحشوّة بسموم أَشدّ فتكاً من الجراثيم .
لذلك تتسابق الدّول الغنيّة
في بناءِ المعامل لها ، وتجهيزها بأَحدث الأَجهزة ،
وتشغيل الملايين من الأَيدي
في تحريك ماكيناتها ،
أَو في استخراج الموادّ الضرورية لها
من بطن الأَرض أَو من سطحها .
أَمّا الدول الفقيرة
فتتسابق إلى شراءِ ما تستطيع شراءَه من الأَسلحة
بالدَّين تُرهق به كواهل بنيها

وتحرمهم الكثير من مقوّماتِ الحياة .

ولو أَنَّ عمل وزارة الحربية

انتهى عند هذا الحدّ

لكانت المصيبة نصف مصيبة .

ولكنّ وزارة الحربية تُعنى فوق ذلك

بتجنيد الجيوش وتدريبها على استعمال ذلك السلاح .

والجيوش تُجنَّد في الغالب من الشبّان ـ

وأَحياناً من الشابّات كذلك ـ

أَي من خيرة السكّان وأَوفرهم نشاطاً

وأَجدرهم بحياة كلّها أَمل وفَرَح ،

وكلّها إيمان بحاضرٍ فاضل ومستقبَل أَفضل .

وإذا تخلَّف أَحدهم عن إداءِ « واجبه المقدَّس » ،

أَو هرب ، بعد تجنيده ، من خدمة « العَلَمَ والوطن »

عُدَّ خائناً زنيماً ، ومجرماً رعديداً .

فزُجَّ في ظلمات السجن

وعوقب أَفظع العقاب .

وذلك يعني ، يا ربّي ،

أَنَّ مَن يُقدِّس نسمة الحياة – حياتك ،

ويأْبى أَن يجعلها سلعة في أَيدي تجّار الموت ،

وأَن يلوِّثها بدماءِ الأَبرياء

يُعدّ مارقاً من الحياة

وعدوّاً لِ« النظام » وللناس « الشرفاء » .

في الأَرض اليوم ملايين المجنَّدين

من كلّ جنس ولون ، ودين ولسان .

وهؤلاء كلُّهم تحرِّكهم أَيدٍ خفيّة يجهلونها

ولا تجهلها وزارات الحرب .

وليس عليهم إلّا الطاعة العمياء .

فكأَنَّهم وحجارة الشطرنج سواء .

ويا لَهَول التمزُّق الجسداني والنفساني

الذي تنطوي عليه تلك الطاعة العمياء !

فكيف بالموت الزؤام ؟ !
والجنود لا يحرثون ويزرعون ويحصدون ،
ولا يبنون المدن والمعاهد والمعابد ،
ولكنَّهم من تعب الفلَّاح والعامل والتاجر
وغيرهم ، وغيرهم ،
يأْكلون ويشربون ويكتسون ويتسلَّحون ،
وعلى فنون التقتيل والتدمير يتدرّبون .
كلّ ذلك ووزارة الحرب وأَبواقها
لا تغفل لحظة
عن زرع أَكبر خدعة في نفوسهم وأَفكارهم ،
وهي أَنَّ عملهم هو أَشرف الأَعمال ،
وأَنَّ رسالتهم هي أَنبل الرسالات .
فهم يَقتلون ويُقتلون
لا حُبّاً بالقتل والتدمير ،
بل ذوداً عن حياض « الوطن المقدّس » ،

ودفاعاً عن « الحريّة » و « الكرامة » .

ولو أنَّ ما تنفقه وزارات الحرب

في طول الأَرض وعرضها من جهد ومال

أُنفق كلّه ـ أَو جلّه ـ

على محو الحدود والسدود بين الناس .

وعلى زرع شيءٍ من بذور المحبّة في قلوبهم .

وشيء من بذور التفاهم في أَفكارهم .

وشيء من بذور اليقين في نفوسهم

بأَن طريقهم واحد .

ووطنهم واحد . وهدفهم واحد

وهو معرفة الحقّ الذي يحرّر من كلّ قيد وحدّ ـ

حتى من الموت ـ

لو فعل الناس ذلك لتجنَّدوا على بكرة أَبيهم .

لا بعضهم ضدّ بعض .

بل في سبيل ذلك الهدف والوصول إليه .

إلَّا أَنَّ الظلمات التي تتدفَّق عليهم
من كهوف وزارات الحروب
تغشّي عيونهم فلا يبصرون ،
وتسدّ آذانهم فلا يسمعون ،
وتعطّل تفكيرهم فلا يفقهون ما يقولون ويعملون .
ذلك ، يا ربّي ، هو جانب آخر
من جوانب الوجه المظلم لحياتي على الأَرض .
وهو الجانب الذي كثيراً ما يحجبك عني
فأَطلبك ولا أَجدك ،
وتناديني فلا أَسمعك .



وهناك الجانب الأَشدّ ظلاماً .
وظلامه يأْتيني من كهوفٍ
ليتها كانت من الصخر أَو من التراب .
ولكنَّها من الحديد والفولاذ ،
ومن الإِسمنت المسلَّح ،
لا تفعل فيها الأَزاميل والمطارق ،
ولا يخرقها الرصاص والديناميت .
تلك الكهوف هي أَقدس أَقداس العالم .
فيها يصلّي ،
وفيها يقدِّم قرابينه ،
وبها تتَّصل شرايين قلبه ،
ومنها تنبعث الحرارة والحركة في مفاصله .
وهو يحرص عليها
أَشدّ من حرصه على حدقة عينه .
وعلى النَّفَس في صدره .

في تلك الكهوف

يصنع العالم ويختزن نقوده

من ذهبٍ وفضَّةٍ ونحاس ،

وأَوراقٍ تقوم مقام النحاس والفضَّة والذهب ،

ومنها يرسلها لتدور في جسده وتدفعه على الحركة

تماماً كما يدور الدم في الجسم الحيّ

ويدفعه على الحركة .

وحيثما افتقر إِليها إنسان من الناس ،

أَو شعب من الشعوب ،

أُصيب ذلك الانسان أَو الشعب

بفقر الدم وكلّ ما يلازمه من أَعراض خبيثة .

وأَخبثها انكسار الجفن والقلب

وفقدان الشعور بلذَّة البقاء

وبالكرامة الإِنسانية .

حتى البهائم والطيور والنباتات

التي تتَّكل في عيشها على الانسان

تُصاب بفقر الدم

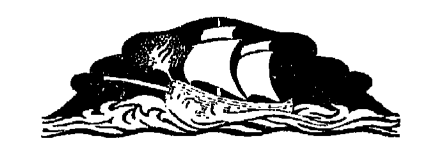
وتفارقها بهجة الحياة

إذا ابتُلي أَصحابها بالفقر إلى المال.

وما أَكثر الذين تهجرهم الحياة

لا لِعلَّة في أَجسادهم

بل لأَنَّ المال هجر جيوبهم !



داءٌ مقيت ومميت هو الفقر.

وأَمقت منه بكثير،

وأَشدُّ فتكاً بالاجساد والنفوس معاً

هو داءُ الغنى .
فمن شأْن الناس والشعوب
الذين انتفخت جيوبهم وصناديقهم بالمال
أن يتصرّفوا كما لو كانوا هم
أسياد الناس والشعوب دون منازع ،
وكما لو كان لهم الحقّ الأَوّل والنصيب الاكبر
في خير ما ينتجه الناس ،
وخير ما تجود به الأَرض والسماء .
ولكنّهم ، وهم في نشوة الاعتزاز بالسلطان
الذي يحمله إليهم المال ،
وبالبحبوحة التي يضفيها على حياتهم ،
قلَّما يُلقون أيّ بال
إلى الجراثيم الفتّاكة التي ينفثها المال
في أَجسادهم وأَرواحهم بالسواء .
وإذا بهم يُصابون ، أَوَّل ما يصابون ،

بضروب وضروب من الشَّلل:

فَشلل في الفكر،

وشلل في الوجدان،

وشلل في البصيرة،

وشلل في الإيمان.

أمّا الشلل الأَفظع والأَدهى

فهو شلل الإنسان في الإنسان.

إزاءَ هذه الضروب من الشلل

يهون القلق والأَرق وشغل البال

والخوف المستمرّ

من أَن تبدر من المصاب بداءِ الغنى أيّ بادرة

تنفرّ منه المال.

فهل أَعجب من ذي داءٍ عياء

لا يريد لدائه البراء؟!

تلك هي حال الناس مع المال.

ولا غرو .

فهم بالمال يأْكلون ويشربون ويكتسون ،

وبالمال يتنفَّسون ويتحرّكون ويعملون .

بالمال يصعدون إلى القمر ،

وبالمال إلى أَعماق اللجَّة يهبطون .

بالمال يبنون ويهدمون ،

وبالمال يتحاربون ويتصالحون .

بالمال تدور مصانعهم ومعاملهم ومتاجرهم ،

وبالمال تُدار حتّى مدارسهم ومعابدهم .

بالمال يَحكمون ويُحكمون ،

وبالمال على حكّامهم يثورون .

بالمال يولدون ويتزاوجون ويتناسلون ،

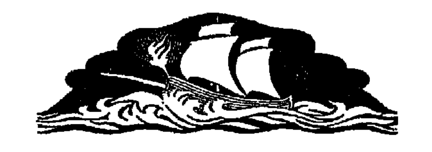
وبالمال يداوون أَمراضهم ويموتون ويُدفنون .

ما من شيءٍ يحتاجون إليه في حياتهم

ممّا في السماءِ أَو على الأَرض

إلَّا يُباع ويُشرى بالمال —
حتَّى الماء والهواء ونور الشمس ،
وحتى الفضيلة والجمال
وما كان غذاءً للفكر والقلب
وللوجدان والخيال .
فما دام للمال ذلك السلطان الرهيب
في أَعناق الناس وأَرزاقهم
أفلا غفرتَ لهم ، يا ربّي ، رياءَهم
كلَّما سبَّحوك بأَلسنتهم وشفاههم ومجَّدوك
في حين أَنَّهم بقلوبهم وأَفكارهم للمال يسجدون ،
وأَمام عرشه جباهَهم يعفِّرون ،
وباسمه يتبرّكون ،
وبجبروته في كلّ ساعة يشهدون ؟
وهل الناس غير أَطفال
يتلهَّون بأَلاعيب خلقوها ؟

وأَحبَّها إِلى قلوبهم لعبة المال.
ولعلَّهم متى شبُّوا جميعهم عن الطوق —
وقليل جدّاً هم الذين شبُّوا عنه —
يستبدلون بسلطان المال
سلطانك وحدك، يا ربّي،
الذي هو سلطان المحبّة.



واغفر لي، يا ربّي،
بخوراً حرقته على مذبح المال
وساعاتٍ هدرتها في استرضائه
كيما أَستر عريي،

وأُسكت جوعي وعطشي ،
وأُلهي عيني وأُذني ،
وأبني لجسدي مأْوى .
وأحفظ ماءَ وجهي بين الناس .
أَولستُ من لحمٍ ودم ؟
وللَّحم والدم حاجات تتجدَّد وتتكرَّر باستمرار .
وهي لا تفتأُ تضجّ وتضجّ
إلى أَن تنقضي .
وهي لا تنقضي إلَّا بالمال .
فما حيلتي ؟
على أَنني ما استعطفت المال مرّة
إلَّا شعرت بتقزُّز من نفسي ومن المال .
ولا باركتُه مرّة
إلَّا لعنتُه أَلف مرّة .
ولا حرقت له البخور

إلَّا اختنقتُ واحترقت ببخوري .

ولا هدرت ساعة في استرضائه

إلَّا تـأَلَّمت ساعات من ثورة في ضميري .

وحسبي بلاءً منه

أَنني كلَّما أَبصرت وجهه

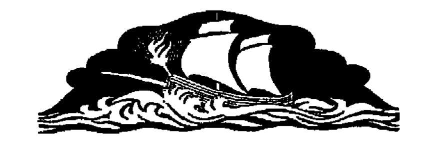
غابَ عنّي وجهك .

وكلَّما فرحت به

ضاع عليَّ فرحي بعجائبك

وأَهمُّها العجيبة الكبرى التي هي

الإِنسان .



إي. مشوَّش هو عالم الناس، يا ربّي –
مشوَّش أَفظع التشويش.
والغريب أَنه يحاول أَبداً تنظيم تشويشه
فيأْتي تنظيمه ضغثاً على إبّالة،
أَو زيادة بِلَّة في الطين.
لو كان للأَرض أَن تحكي تاريخها مع الناس
لصعق الناس.
فهم منذ أَن استوطنوها
قبل مليون سنة وأَكثر
ما فتئوا ينظِّمون علاقاتهم معها
ومع بعضهم البعض
فلا يستقرّ لهم نظام.
لقد اقتسموا الأَرض
وتواصوا فيما بينهم
أَن لا يتعدَّى أَحدهم حدود الآخر.

فلم يلبثوا أَن اختلفوا على القسمة .
ولا يزال الخلاف قائماً بينهم
منذ فجر تاريخهم
وحتَّى اليوم .
ولو أَنَّه كان خلافاً يبتدئُ بالكلام
وينتهي بالكلام
لهان الأَمر .
ولكنه خلاف تدرَّج على كرِّ العصور
من استخدام الأَكفِّ والأَرجل والأَسنان
إلى استخدام المقلاع والقوس والنشَّاب ،
فالمدية والرمح والسيف ،
فالبارود والبارودة والمدفع ،
فالديناميت وغيره من المتفجِّرات ،
فالقنابل المحرقة والجرثومية تقذفها الطائرات ،
فالقنابل الذرية والهيدروجينيّة ،

فالصواريخ عابرات القارّات ،
فالاقمار الصناعية تمخر عباب الفضاء .
ناهيك بالأَساطيل تجوب البحار
وتحمل الموت والدمار .
والحبل على الجرّار .
وماذا كان من هذه الأَسلحة جميعها ؟
كان منها أَنَّها راحت تعبث
بحدود الناس وسدودهم
كما تعبث الريح بالغيوم في السماء
فتنشر الغيمةَ الصغيرة
وتطوي الغيمةَ الكبيرة
أَو تمزِّقها شرَّ ممزَّق .
والناس ، مع ذلك ، لا يرعوون
ويمضون في غيِّهم يمعنون
وعلى تقسيم الأَرض يصرُّون .

ولأَنَّ الأَرض ليست لقبيلة دون قبيلة ،
أَو لشعب دون شعب ،
أَو لدين دون دين ،
بل هي إِرث مشترك للناس أَجمعين ،
فهي تأْبى أَن تتقسَّم .
وكلّ محاولة يقوم بها الناس لتقسيمها ،
ثم للحفاظ على ذلك التقسيم ،
محاولة مقضيٌّ عليها بالفشل الذريع
وبكلّ ما يرافق ذلك الفشل
من دمع ودم ،
وحرقة ولوعة ،
ودمار وبوار ،
وموت زؤام .
لكأَنِّي بالأَرض منذ أَن وُلِد لها الإِنسان
وانتشر نسله في أَرجائها

فراح يمزّقها إرباً إربا –
لكأني بها تخاطبه فتقول:
«ما هكذا يا سعد توردِ الإبل».
ما هكذا يليق بالإبن البارّ
أَن يتصرَّف تجاه أُمِّه.
فأَنا ما ولدتك أَنت ونسلك
لأَشقى بكم وتشقوا بي
بل لتسعدوا بي وأَسعد بكم.
ولقد هيّأْتُ لكم كلّ ما تحتاجون إليه
من غذاءٍ وكساءٍ ومأْوى،
وبهجة للعين والأُذن،
ومتعة للأَنف واللسان،
ومسارح بغير حدود للفكر والخيال والوجدان.
على أَن لا تنسوا أَبداً
أَنَّكم عائلة واحدة.

وأَنَّ لأَصغركم وأَضعفكم
من الحقّ في أُمومتي
وكلّ ما تدرّه عليكم من حُبٍّ وخيرات
مثلما لأَكبركم وأَقواكم .
ولكنَّكم سرعان ما نسيتم.
وسرعان ما تنكَّرتم لبُنوّتكم وأُمومتي ،
فرحتم تنظِّمون صِلاتكم بي
على أُسس أَوهى من خيوط العنكبوت
كأَن يكون للواحد منكم
نصيب الأَسد من خيراتي
ولا يكون للمليون من إخوانه
أيّ نصيب .
لذلك ما استقام لكم نظام معي
ولن يستقيم .
ولذلك ما جنيتم

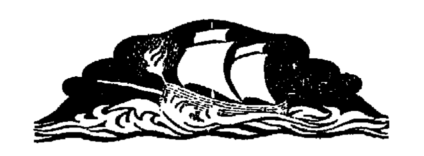
ولن تجنوا من نظمكم
غير التشويش
وكلّ ما في التشويش من نزاع وصراع ،
وما في الصراع والنزاع
من مرارة الحقد والألم
ومن بشاعة الشحناءِ والبغضاء .
ومثلما حاولتم على مدى مليون سنة
أَن تنظِّموا علاقتكم معي
فلم تجنوا من محاولتكم غير التشويش
كذلك حاولتم وتحاولون
تنظيم علاقاتكم مع بعضكم البعض
فلا يستقرّ لكم نظام .
فلا الزوج مع زوجه في سلام ،
ولا الأَخ مع أَخيه في وئام .
أَمّا الحاكم والمحكوم ،

والخادم والمخدوم ،
والبائع والشاري ،
والمؤجِّر والمستأْجر ،
والمعلِّم والمتعلِّم ،
والمنتج والمستهلك ،
والقاضي والمتقاضي ،
وغيرهم وغيرهم من صنوف الناس
فهؤلاء جميعهم أَبداً في حذر بعضهم من بعض
وكثيراً ما ينقلب الحذر إلى خصام .
وأَمّا النقد الذي اتخذتموه ميزاناً لأَثمانكم
وجعلتموه المهيمن الأَكبر
والسيِّد المطلق في علاقاتكم بعضكم مع بعض
فحاله حال الزئبق بالتمام .
فهو كلَّما ارتفع أَو انخفض
ارتفع ضغط الدم في شرايينكم وانخفض .

فدبَّ الذعر في نفوسكم ،
واختلَّ نبض قلوبكم ،
فرحتم تعقدون المؤتمرات ،
وتدبِّجون المعاهدات ،
ولكن دون جدوي .
فالزئبق يبقى زئبقاً ،
ومحاولتكم تجميده
لا تزيدكم غير تشويش فوق تشويش .
لعلَّ أَغرب ما رأَيته من تشويشكم
هو تلك المجالس التي ابتدعتموها
لا لشيء
إلَّا لخلق شرائع تبغون منها
تنظيم تشويشكم .
وإذا بتلك الشرائع تملأُ جبالًا من المجلَّدات .
وإذا بتشويشكم

يتفاقم يوماً تلو يوم
وعاماً بعد عام .
أفما آن لكم أن تدركوا
أَنَّ أُمومتي
هي وحدها النظام ؟
فأنا ما أَبحتُ لكم كلّ ما في صدري
من لبنٍ وعسلٍ
ومَنٍّ وسلوى
إلّا لينعم به المقعد منكم والمجنَّح ،
والأَبرص والسليم ،
والجاهل والعاقل ،
والأَبيض والأَسود ،
والملحد والمؤمن .
فكلُّكم أَبنائي .
وكلُّكم في عطفي ومحبَّتي سواء » .

هكذا يُخيَّل إليَّ
أَنَّ الأَرض تخاطب الناس أَبداً
بمثل هذا الكلام ،
بل بما هو أَبلغ من هذا الكلام بكثير .
ولكنَّهم ،
كما قيل فيهم من زمان ،
لهم عيون ولا يبصرون ،
ولهم آذان ولا يسمعون .



طفلك أَنا يا ربّي .
وهذه الأَرض البديعة ، الكريمة ، الحنون

التي وضعتني في حضنها
ليست سوى المهد
أَدرجُ منه إليك.
إلَّا أَنَّه ليس مهدي وحدي
بل تشاركني فيه
ربوات وربوات من مخلوقاتك.
بعضها على صورتي ومثالي ،
وهو القليل القليل ،
وبعضها يختلف عني صورةً ومثالاً ،
وهو الكثير الكثير.
وهذا القليل القليل ،
وهذا الكثير الكثير ،
كلُّهم دون استثناء
يمتصُّ رحيق الوجود
من ثدي واحد

هو ثدي الحياة ـ حياتك.
فكأنّهم العنقود في الكرمة
مهما كثُرت حبّاته
وتفاوتت لوناً وحجماً وطعماً،
تبقى لكلّ حبّة عنق تصلها بالعنقود
وبها تمتصّ عصير البقاء.
وتبقى للعنقود عنقه التي تصله بالكرمة.
والتي بها يمتصّ الحياة
ويوزّعها على حبّاته وحبيباته.
وتبقى للكرمة جذورها
التي بها تنهل إكسير الحياة
من التراب والبحر والشمس والهواء
وكلّ منظور وغير منظور في الفضاء.
وهذه الشراكة في الرضاعة
كانت وحدها قمينة

بـأن تجعل من مخلوقاتك جميعها
أُسرةً تشدُّها بعضها إلى بعض .
وتشدُّها إليك ،
أَواصر محبّة لا يقوى الزمان ،
ولا الموت ،
على فصمها .
ولكن ...
على مَن أَعتب من مخلوقاتك
إذا هو تنكَّر لأُخوَّة الثدي .
وبالتالي للمحبّة ؟
أَأَعتب على الذئب لا يؤاخي الحَمَل ؟
أَم على الصقر ينسى أَنه والعصفور
أَخَوَان في الرضاعة ؟
أَم على الهرّ يفتك بالفأْر
وكلاهما يأْكل من معجن واحد ؟

لا. لا أَعتب على أَيّ مخلوق دون الانسان.
وأَعتب على الانسان.
فهو وحده بين سائر مخلوقاتك على الأَرض
مؤهَّل لأَن يُقيم وزناً لأُخوَّة الثدي،
وأَن يعرف أَيّ قوَّة خارقة
هي المحبّة النابعة من تلك الأُخوَّة،
وأَن يؤمن بحتميّة تلك المحبّة،
فيجعلها الأَساس الذي تقوم عليه علاقاته
مع إِخوانه الناس
ومع باقي شركائه في بركات الأَرض والسماء.
وحده الإِنسان يستطيع أَن يوسِّع ذاته
إِلى أَن تشمل كلّ ذات.
فيبارك لاعنيه،
ويعطف على مبغضيه،
ويُشفق على حاسديه،

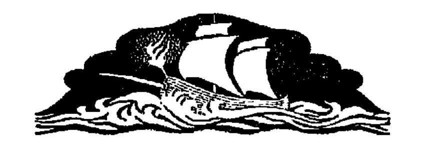
ويطعم عدوّه إذا جاع ،
وينقذ حياته إذا تعرَّض للخطر .
لأَنَّ هؤلاء جميعهم
هم منه وفيه .
بهم يحيا ؛
وبه يحيون .
وحده الإِنسان يستطيع أَن يدرك
عظمة المحبّة وجبروتها
فهي إن لم تكن في بؤبؤ العين
كان كلّ ما تبصره العين ضباباً في ضباب .
وهي إِن لم تكن في طبلة الأُذن
كان كلّ ما تسمعه الأُذن نشازاً في نشاز .
وهي ما لم تدفع اللسان على الكلام
كان كلّ ما يقوله اللسان هذياناً في هذيان .
وهي ما لم تحرّك أَصابع اليد

فلا قيمة لكلّ ما تعمله

ولكل ما تعطيه أَو تأْخذه اليد.

وهي ما لم تكن في حبّة القلب

كان كلّ ما يحبّه القلب سراباً في سراب.



كَمْ كنتُ أَتمنّى، يا ربِّي، –

ورسولك بات على قيد باعٍ منّي، –

لو كان لي أَن أَستقبله

وليس في بؤبؤ عيني،

أَو في طبلة أُذني،

أَو في لساني

أو في أناملي ،
أو في حبّة قلبي
إلّا المحبّة !
ليته كان في مستطاعي
أن أمحو من ذاكرتي
كلّ صورة ،
كلّ فكرة ،
كلّ نيّة ،
كلّ شِهوة ،
كلّ لذّة ،
كلّ شكوى
كان فيها شيء من التجديف على المحبّة !
ليته كان في مستطاعي أن أفعل ذلك
حتى إذا جاءَ رسولك
ليقطع الأمراس التي تشدّني إلى الأرض

فتحت له صدري ،

ومددت إليه يدي ،

ومعاً قطعنا الأمراس.

على أنني ، وإن جدَّفت على المحبة

في ما عبرَ من أيامي ،

ففي قرارة نفسي اليوم

إيمان عميق جدّاً –

إيمان لا يتزعزع –

بأنَّ المحبة وحدها هي المفتاح

لكلِّ ما أُغلق عليَّ من أسراري

وأسرار الكون.

وهي وحدها الدواءُ الشافي

لكلِّ ضروب القلق والحيرة والتمزُّق

والخوف من سوءِ المصير.

أليس أن الشوق إلى المعرفة

يكويني بما يشبه الجمر ؟
وهل تكون المعرفة معرفة
إلّا إذا هي تناولت كلّ ما كان ،
وما هو كائن ،
وما سيكون ؟
وهل في استطاعة أي إنسان
أن يعرف شيئاً يكرهه ؟
أليس أنَّ كرهي لأيّ شيء ،
أو لأيّ إنسان
يقوم سدّاً منيعاً بيني وبين معرفتي لهما ؟
ذلك السدّ لا يخرقه المنجنيق ،
ولا يدكّه المدفع ،
ولا يجرفه السيل ،
ولا يقتلعه الإعصار ،
ولا تلتهمه النار .

ولكنَّه يتلاشى من أَمام وجه المحبّة
كما يتلاشى الدخان من أَمام وجه الشمس.
ومثل شوقي إلى المعرفة
هو شوقي إلى الحرية —
حريّتي من كلِّ قيدٍ وحدٍّ وسدّ.
وما أَكثر القيود والحدود والسّدود
التي تواجهني في كلّ لمحة من وجودي
على الأَرض!
وهذه القيود والحدود والسدود
لا يمضغها ويهضمها اللحم والدم،
ولا يفتِّتها الزمان،
ولا يصهرها المكان —
فهذه كلّها هي قيود وحدود وسدود.
وتمضغها وتهضمها،
وتفتِّتها وتصهرها

المحبّة .
إنَّ بَسمة تقفز من قلبي إلى عيني ،
دون أيّ تصنُّع أو تكلُّف ،
عندما أَمدُّ يدي لأَيّ إنسان
لتَفعل فعل السحر في ذلك الانسان.
فهي كفيلة بأَن تجرِّده من أَيّما سلاح يحمله ضدّي
إن في قلبه ،
أَو في رأْسه ،
أَو في جيبه .
بل هي كفيلة بأَن تفتح له باب قلبي
وتفتح لي باب قلبه .
فكيف بالجسم كلّه
إذا كان لا يشعّ
إلّا بالمحبّة ؟
في استطاعة مثل ذلك الجسم

أَن يساكن العقارب والأَفاعي ،
وأَن يؤاخي سباع البر
وكواسر الجو .
وقبل أَن يشعّ الجسم بالمحبة
لا بدَّ للروح الذي يحركه
من أَن ينصهر في أُتُّون المحبة
كيلا يشعّ
إلَّا بالمحبة .
ولكي ينصهر الروح في أُتُّون المحبة
عليه أَن يحرق كل شهوة ونزوة .
وكل فكرة ونيّة ،
وكلّ عمل وكلمة ،
وكل ميل ووهم ،
وغيرها وغيرها من الأَحاسيس والتخيُّلات
التي من شأْنها أَن تُقيم الحدود

وتبني السُّدود
بينه وبين سائر الكائنات .
وهكذا تقطع عليه الطريق
إلى المعرفة . التي تحرِّر ،
والحرية التي تعرف ،
والمحبّة التي لولاها
لما كان من قيمة أَو معنى
لأَيِّ معرفة
وأَيِّ حرّية .



ربِّي ! لقد أَسبغتَ عليَّ من الهبات
ما لو شئتُ أَن أُحصيه
لما بلغت نهاية .
وكان أَروع ما وهبتني ،
وأَثمن ما وهبتني ،
وأَعظم ما وهبتني
على الاطلاق .
المحبّة .
إلَّا أَنها هبة لم استثمر منها حتى اليوم
غير اليسير اليسير .
فما انصرفتُ إليها مرّة لأَحيا بها
حتى صرفني عنها ،
وفي مثل رفّة الجفن ،
أَلف هاجس وهاجس .
لقد كان لها

أن تجري جريان الدم في عروقي
والنَّفَس في صدري.
لقد كان لها وحدها ـ
وهي أُمُّ كلّ أُمّ
وعلَّة كلِّ علَّة ـ
أَن تحتلّ ذلك الكشكول العجيب
الذي ضمن جمجمتي
فتمضي تغربل ما فيه
وتنخله وتصفِّيه
إلى أَن لا يبقى منه
غير الذي يليق بصفائها
وجلالها وبهائها.
ولكن...
أَنَّى لي ذلك
وأَنا ما وعيت المحبّة وعظمة المحبّة

إلّا من بعد أَن امتلأً كشكولي
حتى الفيضان
بربوات من الشاردات والواردات
التي لا شيءَ عليها
من بريق المحبّة ؟
ثم أَنَّى لي ذلك ، –
والكشكول كشكولي ، –
ولكنّني لست سيِّده المطلق
أُدخل إليه ما أَشاء ساعة أَشاء ،
وأَنبذ منه ما أَشاء ساعة أَشاء ،
وأَمنعُ التسلُّل إليه على ما لا أَشاء ؟
وهل لي أَو لأَيِّ ملاك أَو شيطان
أَن يحصي ما تقبَّله ذلك الكشكول
من العجائب والغرائب
منذ نعومة أَظافري

وحتّى الساعة ؟

إنّه لَعَوالم في عوالم في عوالم .

منها التافه منتهى التفاهة .

ومنها الجليل غاية الجلالة .

ومنها ما هو بين – بين .

وهذه العوالم جميعها ،

وهي بعضٌ مني ،

يتصرَّف بها على هواه

ذلك البهلوان الأكبر

الذي هو فكري .

فهو لا ينفكُّ لحظة واحدة

إن في الليل أَو في النهار ،

وإن في اليقظة أَو في المنام ،

عن العبث بتلك العوالم ومحتوياتها

حتى لا تكاد تستقرُّ أَكثر من لمحة واحدة

في حالة واحدة.
فكأنها الكومة من حبوب الحنطة،
أو غيرها من الحبوب،
وكأنَّه الولَد يذروها بيديه الاثنتين،
ودونما انقطاع،
فلا هو يستريح،
ولا هي تتعب.
ولا هو يزيد فيها حبَّة
أو يُنقص حبة.
والطريف في تلك اللعبة
التي يلعبها البهلوان الأكبر
بمحتويات الكشكول العجيب ضمن جمجمتي
أنَّه يكشف لي منها في بعض الأحيان
أشياءُ تبعث في النفس شعوراً
بالفرح الذي لا يوصف.

فتتمنَّى النفس لو أَنَّ ذلك الشعور يبقى
ما بقيت هي
وبقي الزمان.
ولكنَّه شعور لا يلبث أَن يفلت من النفس
عندما يعود البهلوان الأَكبر
فيكشف لها أَشياء وأَشياء،
ومشاهد تلو مشاهد،
بعضها يبعث فيها الحزن،
أَو الخوف،
أَو الحيرة،
أَو السأَم،
أَو الندم،
أَو اللامبالاة،
أَو أَي شعور آخر،
من المشاعر التي يتأَلَّف منها

سلَّم الأَحاسيس والرؤى الانسانية.
وأَطرف من ذلك كلّه
أَنَّ الفكر، وهو لاهٍ بلعبته تلك،
لا يفتأ يتكلَّم،
ولكن دون صوت.
فما أَكثر ما يخاطب ذاته،
أَو يخاطب شتى الأَشياء والظروف،
وشتّى الكائنات القريبة والبعيدة،
وشتّى الأَرواح الهائمة في الأَرض
أَو في الفضاء،
وحتى الآلهة!
لو كان لي أَن أُسجِّل
كل ما يقوله فكري لفكري
في كل ساعات الليل والنهار
دون أَن يتلفَّظ به لساني،

ودون أَن تسمعه أُذني

أَو أُذن أَي إنسان أَو حيوان

لَصُعِقت !

فكيف بي

لو كان لي أَن أسمع كلَّ ما قاله الناس في سرِّهم

منذ أَن كان الناس ،

وما يقوله اليوم جيراني

في الزمان والمكان ،

لا بأَلسنتهم وشفاههم

بل في قرارة نفوسهم ؟ !

إني لأَحجم عن التكهُّن

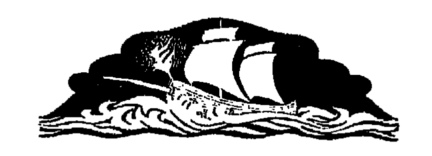
بما كان من الممكن أَن يحدث لي

ولإخواني الناس .

وأَغلب الظنِّ أَني كنت أَصيح

وكانوا يصيحون :

«هذه الأَرض ليست سوى بيت للمجانين !»



ذلك البهلوان الأَكبر ، يا ربي ،
الذي هو فكري ،
كيف لي أن أهنأُ بالعيش وإياه ؟
إنَّه الآمر الذي لا مردَّ لأَمره ،
والناهي الذي يأْبى عليَّ إلَّا الرضوخ لنهيه .
إنَّه سيِّدي المطلق ، المستبد
وأنا عبده الخانع ، الذليل .
ولكَم حاولت –
أَجل . حاولت –

أَن أَقلب الوضع بيني وبينه
رأْساً على عقب ،
فأُصبح سيِّده المطلق ،
ويصبح عبدي المطيع .
ولكنَّ محاولاتي ذهبت أَدراج الرياح .
فما تمكَّنتُ مرَّة من أَن أُسمِّره
ولو لدقيقة واحدة
على صورة بعينها ،
أَو فكرة بعينها ،
أَو حالة نفسية بعينها ،
من الصُّوَر والفِكَر والحالات النفسية
التي يعجُّ بها الكشكول ضمن جمجمتي .
لقد كان في كلِّ مرَّة ،
وما يزال ،
يهرب منِّي كما يهرب الهواء ،

أَو الماء ،

أَو الزئبق

من بين أَناملي .

وكنتُ في كلِّ مرة أَشعر

كما لو كان يلعب بي

لعب الأَولاد بالأُكَر .

فأَتحرَّق وأَتمزَّق ،

وأَعضُّ على جرحي

وأَسكت .

ويخيَّل إليَّ أَنَّ حالي مع فكري وبهلوانياته

هي حال لا تحول .

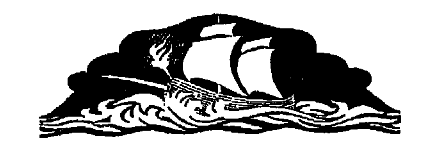
فكأَنَّها ملازِمة لي ولأَبناءِ جنسي

ملازَمة الحرارة والنور والحركة للشَّمس .

وكأَنَّه مقضيٌّ عليَّ ما حييت

أَن أَعيش ساعة يُسرٍ وساعة عُسر .

وأَن أَصطاد في الماء العَكِر
فلا أَدري أَلَذَّةً أَصطاد
أَم أَلمًا مبرِّحاً.



كان ذلك، يا ربّي،
قبل أَن وعيت عظمة المحبَّة
وحتميَّة المحبَّة،
فأَيقنت أَنها هي الحياة،
وأَنَّ الحياة هي،
وأَن لا فارق ولا فاصل
بين الإِثنتين.

أمّا اليوم
فقد بِتُّ ولا شيءَ يغريني
على قدر ما يغريني
أن أرى المحبَّة وحدها
تتسلَّم زمام كشكولي ومحتوياته
فتمسها بمسحتها السحريّة
وإذا بها جميعها
ذريرات شفَّافة كالأَثير
متماسكة بإكسير المحبَّة ،
لا تنبض بشيء
ولا تعكس أيَّ شيء
إلّا المحبّة
فلا عُسر بعد ذلك ويُسر .
لا حزن يضغط على القلب بكلاليب من حديد
أو فرح يكاد يفجِّره شظايا .

لا ساعة حبلى بالأَمل

وأُخرى تتمخَّض عن توائم من الأَلم.

لا اعتزاز بمال أَو بشهرة أَو بجاه أَو بسلطان ،

ولا خوف من زوال هذه جميعها.

لا زهو بانتصارٍ كبير أَو صغير ،

ولا انسحاق بهزيمة نكراء.

لا تطلُّع إلى ساعة ضاحكة ،

ولا هروب من ساعة باكية.

لا ندم على دقيقة مضت ،

وتمسُّك بدقيقة تُعاش ،

وقلق على دقيقة تأْتي.

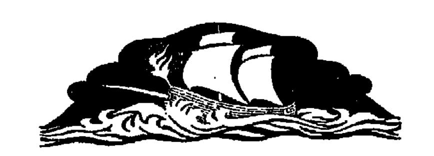
لا عين تستأْنس بمشهد وتنفر من مشهد.

لا أُذن تطرب بصوت وتتخدَّش بصوت.

لا يد تستنعم الخزَّ وتستخشن الشَّعر.

لا لسان يُقبل على الشهد ويدبر عن العلقم.

لا أنف ينفتح لمسكن الغزال
وينغلق دون قذارة الظَّرِبان.
لا فوق ولا تحت.
لا قبل ولا بعد.
لا «أنا» ولا «غير أنا».
لا أنداد ولا أضداد
ممَّا في السماء وعلى الأرض.
بل هناك وحدة سرِّية، قدسيَّة، سرمديَّة
لا تُدرك ولا توصف،
تتلاشى فيها، البدايات والنهايات،
والساعات والمسافات،
وتبقى وحدها لا تحول ولا تزول،
ولا شريك لها في وحدانيتها.
تلك هي المحبَّة.



أعرف ، يا ربِّي ،
أَنَّ الطريق إلى المحبَّة التي أَنشد
طريق محفوف بالأَهوال
ومفروش بالشوك والحَصى المسنَّنة ،
وأَنَّ على سالكه أَن يدمى عقله وقلبه
قبل أَن تدمى يداه ورجلاه ،
وأَن يتصبَّب العرق من خياله وإرادته
قبل أَن يتصبَّب من جبينه وباقي جسده ،
وأَن تلهث وتستغيث « أَنا » ه
قبل أَن تلهث وتستغيث رئتاه .
وأَن يُفرغ كشكولَه من محتواه

ليملأه بالمحبة التي تأبى أن تحصر ذاتها
في شيءٍ دون باقي الأشياء .
أو في إنسان دون باقي الناس .
أو في زمانٍ بعينه
ومكانٍ بعينه .
مثلما تأبى ان تصنّف أصنافاً :
فمحبَّة الوالدَين للأولاد ،
ومحبَّة الأولاد للوالدين ،
ومحبَّة العاشق للمعشوق ،
والصديقِ للصديق ،
والطائر لوكره ،
والإنسانِ لمسقط رأسه .
وتأبى أن تُقاس بذراع
أو أن تُكال بصاع .
أو أن تُدَرَّج في الحرارة

من الصفر وحتّى الغليان.
كذلك تأبى المحبَّة
أَن يكون المحبوب ملكاً للمحبّ.
فهي وحدها المالكة كلّ ما كان،
وما هو كائن،
وما سيكون،
منذ الأَزل
وإلى الأَبد.
ولا شريك لها في ملكها.
أَجَل. إني لأَعرف، يا ربّي،
أَنَّ ذلك هو طريق المحبَّة،
وأَني سائر فيه.
ولكنّني لا أَعرف
أَين أَنا اليوم منه.
وكثيراً ما تساورني شكوكٌ

في قدرتي على السير
حتى النهاية .
وبخاصَّةٍ عندما تزحف عليَّ الظلمات الحالكات ،
وتهبّ العواصف العاتيات
من قِيلِ أَهل الأَرض وقالِهم .
وشهواتهم ونزواتهم ،
وتكالبهم وتناحرهم ،
فيوشك زيت سراجي أَن ينضب
ونوره أَن يُسلم الروح .
إِلَّا أَنني في كلّ مرّة يدنو منّي اليأْس
لا أَلبث أَن أُحِسّ يداً حنوناً تُربّت كتفي
وأُخرى تملأُ سراجي بالزيت .
وإِذا بنوره يتجدّد ويتأَلّق ويمتدّ .
وإِذا بي أَبصر آثار أَقدام
هنا وهناك .

فتستأْنس روحي ،
وتتجدَّد عزيمتي وتشتدُّ ،
وأَدرك أَنَّني لست وحدي في الطريق ،
وأَنَّ رفاقاً سبقوني
لن ينسوني ويهملوني .
وعندئذٍ يعود قلبي
فيطفح بنعمة المحبّة ،
وتعود روحي تغنِّي .
حتَّى إذا آذنت شمسي بالغروب
صفَّقَتْ لها جوارحي ،
وأَيقنتُ أَنَّ غروبها
سيكون شروقاً .

بسكنتا ، ١٩٧٢/٨/٤





طفلك أنا يا ربي!

وهذه الأرض البديعة، الكريمة، الحنون

التي وضعتني في حضنها

ليست سوى المهد

أدرج منه إليك.

ميخائيل نعيمة

